نظرات فى فكر الغزالى

تأليف
دكتور عامر النجار

الطبعة الثانية
١٩٩٢



تصميم الغلاف : محمد أبو طالب
(محمد الصغير)

الناشر : دار المعارف - ١١١٩ كورنيش النيل - القاهرة ج . م . ع .

الإهـــــداء

إلى روح عالمنا الجليل

أستاذنا الإمام الدكتور عبد الحليم محمود

أهدى هذا العمل راجيا من الله تعالى أن يجعل هذا العمل خالصا لوجهه الكريم وأن يكون من العلم الذى ينتفع به بعد أن تنقطع الأعمال بالموت اللهم آمين .

عـامر النجـار



بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمــة

منذ أكثر من تسعة قرون من الزمان كان مولد الإمام الغزالي رضي الله عنه الذي عاش حياته مفكرا إسلاميا ثرى العطاء ، متوقد الذهن ، أحدث بروحه وعقله ثورة عظيمة فى مجال الفكر الإسلامي والفلسفة والتصوف .

وكان هدفه البحث عن الحقيقة ، ووضح صدقه من خلال قوله « وقد كان التعطش إلى درك حقائق الأمور رأيى وديدنى ، من أول أمرى ، وريعان عمرى . غريزة وفطرة من الله ، وضعتا فى جبلّتى ، لا باختيارى وحيلتى » (١) .

وكان مطلوبه العلم الحقيقى « إنما مطلوبى العلم بحقائق الأمور . فلابد من طلب حقيقة العلم . ماهى ؟ فظهر لى أن العلم اليقينى هو الذى ينكشف فيه المعلوم انكشافا لايبقى معه ريْب ، ولايقارنه إمكان الغلط والوهم ، ولا يتسع القلب لتقدير ذلك . بل الأمان من الخطأ ينبغى أن يكون مقارنا لليقين ، مقارنة لو تحدى بإظهار بطلانه مثلا من يقلب الحجر ذهبا والعصا ثعبانا ، لم يُوَرِّثْ ذلك شكا وإنكاراً » (٢) .

وهكذا فتح الإمام الغزالى الباب أمام العقل المستنير بروح البصيرة ليصل إلى العلم الصحيح .

وهذه نظرات فى فكر الغزالى عايشتها وعشتها فى رحاب عقل حجة الإسلام . . وقد تضمنت هذه النظرات إلقاء الضوء على بعض مؤلفاته وهى " إحياء علوم الدين " و " مشكاة الأنوار " و " كيمياء السعادة " . وبحث مشكلة اليقين عند الغزالى .

هذا . . وبالله التوفيق والسداد

عامــر النجــار

---

(١) المنقذ من الضلال لحجة الإسلام الغزالى ص ٦٨ . طبعة مكتب النشر العربى بدمشق ١٩٣٤ .

(٢) المرجع السابق ص ٦٩ .

« المبحث الأول »

الغزالي وتلاميذه وأهم كتبه

أولا : أضواء على الغزالي وتلاميذه

١ - تعريف بالغزالي :

الغزالي هو بحق كما وصفه ماكدونالد يُعَدّ من أعرق المفكرين المسلمين أصالة وأعظم المتكلمين المسلمين إطلاقا .

وهو - لاشك عندنا - مجدد القرن الخامس الهجري بلا منازع . (١)

فإذا كان في المائة الأولى عمر بن عبد العزيز ، وفي الثانية الشافعي وفي الثالثة الأشعري ، أو ابن سُرَيج وفي الرابعة الاسفراييني أو الباقلاني فإن في الخامسة حجة الإسلام وزين الدين الإمام الغزالي رضي الله عنه .

قال إمام الحرمين عن تليمذه الغزالي « الغزالي بَحْرٌ مغدق »

وقال الإمام محمد بن يحيى تلميذ الغزالي : « الغزالي لايعرف فضله إلا من بلغ ، أو كاد يبلغ الكمال في عقله » .

وقال ابن النجار عن الغزالي : « إمام الفقهاء على الإطلاق ، ورباني الأمة بالاتفاق ، ومجتهد زمانه ، وعين وقته وأوانه ، ومن شاع ذكره في البلاد ، واشتهر فضله بين العباد ، واتفقت الطوائف على تبجيله وتعظيمه ، وتوقيره وتكريمه . وخاف المخالفون وانقهر بحججه وأدلته المناظرون ، وظهرت بتنقيحاته فضائح المبتدعة والمخالفين ، وقام بإظهار السنة ونصر الدين ، وسارت مصنفاته في الدنيا ، مسير الشمس في البهجة والجمال ، وشهد له المخالف والموافق ، بالتقدم والكمال » .

---

(١) من أهم المصادر عن حياة الغزالي كتابة المنقذ من الضلال ، والسيد المرتضى : مقدمة كتاب الإتحاف جـ ١ ص ٢ : ص ٥٣ . وهي ذات المادة الموجودة في : طبقات السبكي جـ٤ ص ١٠١ - ص ١٨٢ .
[المنقذ من الضلال : ص ١٨ طبعة مكتب النشر العربي] .

ومن أفضل من عرفنا بالغزالى عبد الغافر الفارسى خطيب نيسابور وكان من الثقاة المعاصرين وقد ذكر الحافظ أبو القاسم بن عساكر كلام عبد الغافر الفارسى عن الإمام الغزالى فقال : قال : أبو الحسن عبد الغافر بن اسماعيل الخطيب الفارسى خطيب نيسابور : محمد بن محمد بن محمد : أبو حامد الغزالى ، حجة الاسلام والمسلمين إمام أئمة الدين : لم تر العيون مثله لسانا وبيانا ، ونطقا وخاطرا ، وذكاء وطبعا ، أخذ طرفا فى صباه فى « طوس » من الفقه على « الإمام » أحمد الراذكانى ثم قدم « نيسابور » مختلفا الى درس « إمام الحرمين » فى طائفة من الشبان من « طوس » وجد واجتهد ، حتى تخرج فى مدة قريبة ، وبَزَّ الأقران ، وحمل القرآن وصار أنظر أهل زمانه وأوحد أقرانه فى أيام إمام الحرمين وكان الطلبة يستفيدون منه ، ويدرس لهم ، ويرشدهم ، ويجتهد فى نفسه ، وبلغ الأمر به إلى أن أخذ فى التصنيف .

وكان الإمام مع علوّ درجته ، وسمو عبارته ، وسرعة جريه فى النطق والكلام لايصغى نظره إلى الغزالى سرا ، لإبانه عليه فى سرعة العبارة وقوة الطبع ، ولا يطيب له تصديه للتصانيف ، وإن كان متخرجا به ، منتسبا إليه ، كما لايخفى من طبع البشر ، ولكنه يظهر التبجح به ، والاعتداد بمكانه ظاهرا خلاف ما يضمره ، ثم بقى كذلك حتى انقضاء أيام الإمام .

فخرج من « نيسابور » وصار إلى « العسكر » واحتل من « نظام الملك » محل القبول وأقبل عليه « الصاحب » لعلو درجته وظهور اسمه ، وحسن مناظرته ، وجرى عبارته .

وكانت تلك الحضرة محط رجال العلماء ، ومقصد الأئمة والفصحاء ، فوقعت للغزالى اتفاقات حسنة ، من الاحتكاك بالأئمة وملاقاة الخصوم اللد ، ومناظرة الفحول ومناقدة الكبار ، وظهر اسمه فى الآفاق ، وارتفق بذلك أكمل الارتفاق ، حتى أدت الحال به إلى أن رسم للمسير إلى « بغداد » للقيام بالتدريس « بالمدرسة الميمونة النظامية » فصار إليها وأعجب الكل تدريسه ، ومناظرته ، مالقى مثل نفسه ، وصار بعد إمامة « خراسان » إمام « العراق » .

ثم نظر فى علم الأصول ، وكان قد أحكمه ، فصنف فيه تصانيف وجدد المذهب فى

الفقه فصنف فيه تصانيف ، وسبك الخلاف ، فجدد فيه أيضا تصانيف ، وعلت حشمته ودرجته فى « بغداد » حتى كانت تغلب حشمة الأكابر والأمراء ، ودار الخلافة ، فانقلب الأمر من وجه آخر .

وظهر عليه نور العلم بعد مطالعة العلوم الدقيقة ، وممارسة الكتب المصنفة فيها ، وسلك طريق الزهد والتأله ، وترك الحشمة ، وطرح مانال من الدرجة ، للاشتغال بأسباب التقوى ، وزاد الآخرة .

فخرج عما كان فيه ، وقصد بيت الله ، وحج ثم دخل الشام وأقام فى تلك الديار قريبا من عشر سنين يطوف ويزور المشاهد المعظمة ، وأخذ فى التصانيف المشهورة التى لم يسبق اليها ، مثل « احياء علوم الدين » والكتب المختصرة منه ، مثل « الأربعين » وغيرها من الرسائل التى من تأملها علم محل الرجل من فنون العلم .

وأخذ فى مجاهدة النفس ، وتغيير الأخلاق ، وتحسين الشمائل ، وتهذيب المعاش فانقلب شيطان الرعونة ، وطلب الرياسة والجاه ، والتخلق بالأخلاق الذميمة إلى سكون النفس وكرم الأخلاق ، والفراغ عن الرسوم والترتيبات وتزيا بزى الصالحين وقصر الأمل ، ووقف الأوقات على هداية الخلق ، ودعائهم إلى ما يعنيهم من أمر الآخرة وتبغيض الدنيا والاشتغال بها على السالكين ، والاستعداد للرحيل إلى الدار الباقية والإقتداء بكل من يتوسم فيه ، أو يشم منه رائحة المعونة أو التيقظ بشىء من أنوار المشاهدة ، حتى مرن على ذلك ولان .

ثم عاد إلى وطنه ، ملازما بيته ، مشتغلا بالتفكير ، ملازما للوقت ، مقصودا تقيا وذخرا للقلوب ، لكل من يقصده ويدخل عليه إلى أن أتى على ذلك مدة ، وظهرت التصانيف وفشت الكتب ، ولم تبد فى أيامه مناقضة لما كان فيه ، لا اعتراض لأحد على أمره ، حتى انتهت نوبة الوزارة إلى « الأجلّ فخر الملك ، جمال الشهداء » تغمده الله برحمته وتزينت « خراسان » بحشمته ودولته .

وقد سمع فخر الملك وتحقق بمكانه الغزالى ودرجته ، وكمال فضله وحالته ، وصفاء عقيدته ومعاشرته ، فتبرك به ، وحضره ، وسمع كلامه ، فاستدعى منه أن لايبقى أنفاسه

وفوائده عقيمة ، لا استفادة منها ، ولا اقتباس من أنوارها ، وألح عليه كل الإلحاح ، وشدد في الاقتراح إلى أن أجاب إلى الخروج وحمل الى « نيسابور» وكان الليث غائبا عن عرينه والأمر خافيا في مستور قضاء الله ومكنونه .

فاشير عليه بالتدريس في « المدرسة الميمونة النظامية » عمرها الله ، فلم يجد بدا من الإذعان لمولاه ، ونوى إظهار ما اشتغل به هداية السراة ، وإفادة القاصدين دون الرجوع الى ما انخلع عنه ، وتحرر عن رقه من طلب الجاه ، ومماراة الأقران ، ومكابرة المعاندين .

وكم قرع عصاه بالخلاف والوقوع فيه ، والطعن فيما يذره ويأتيه والسعاية به والتشنيع عليه ، فما تأثر به ، ولا اشتغل بجواب الطاعنين ، ولا أظهر استيحاشا بغميزة المخلطين .

ولقد زرته مرارا ، وما كنت أحدث في نفسي ماعهدته في سالف الزمان عليه ، من الزعارة وإيحاش الناس ، والنظر إليهم بعين الإزدراء ، والاستخفاف بهم كبرا وخيلاء ، واغترارا بما رزق من البسطة في النطق والخاطر والعبارة ، وطلب الجاه والعلو في المنزلة .

إنه صار على الضد وتصفى عن تلك الكدورات ، وكنت أظن أنه متلفع بجلباب التكلف، متيمن بما صار إليه .

فتحققت بعد التروي والتنقير أن الأمر على خلاف المظنون ، وأن الرجل أفاق بعد الجنون .

وحكى لنا في ليال ، كيفية أحواله ، من ابتداء ماظهر له من سلوك طريق التأله وغلبة الحال عليه ، بعد تبحره في العلوم ، واستطالته على الكل بكلامه ، والاستعداد الذي خصه الله به في تحصيل أنواع العلوم ، وتمكنه من البحث والنظر ، حتى تبرم من الاشتغال بالعلوم العريية عن المعاملة ، وتفكر في العاقبة ، ومايجدي وما ينفع في الآخرة .

فابتدأ بصحبة « الفارمدي » وأخذ منه استفتاح الطريقة ، وامتثل ما كان يشير به عليه من القيام بوظائف العبادات ، والإمعان في النوافل ، واستدامة الأذكار ، والجد والاجتهاد طلبا للنجاة ، إلى أن جاز تلك العقبات ، وتكلف تلك المشاق ، وماتحصل على ماكان يطلبه من مقصوده .

ثم حكى أنه راجع العلوم وخاض فى الفنون وعاود الجد والاجتهاد فى كتب العلوم الدقيقة واقتفى تأويلها ، حتى انفتح له أبوابها .

وبقى مدة فى الوقائع ، وتكافؤ الأدلة وأطراف المسائل .

ثم حكى أنه فتح عليه باب من الخوف ، بحيث شغله عن كل شىء ، وحمله على الإعراض عما سواه حتى سهل ذلك ، وهكذا . . . وهكذا . . . إلى أن أرتاض كل الرياضة وظهرت له الحقائق وصار ماكنا نظن به، تمرسا وتخلقا ، طبعا وتحققا ، وأن ذلك أثر السعادة المقدرة له من الله .

ثم سألناه عن كيفية رغبته فى الخروج من بيته ، والرجوع إلى ما دعى إليه من أمر « نيسابور» فقال معتذرا عنه :

« ماكنت أجوز فى دينى ، أن أقف عن الدعوة ، ومنفعة الطالبين بالإفادة ، وقد حق على أن أبوح بالحق ، وأنطق به وأدعو إليه »

وكان صادقا فى ذلك .

ثم ترك ذلك قبل أن يترك ، وعاد إلى بيته، واتخذ فى جواره « مدرسة » لطلبة العلم ، « وخانقاه للصوفية »وكان قد وزع أوقاته على وظائف الخير ، من ختم القرآن ، ومجالسة أهل القلوب ، والقعود للتدريس بحيث لاتخلو لحظة من لحظاته ، ولحظات من معه عن فائدة ، إلى أن أصابه عين الزمان ، وضنت به الأيام على أهل عصره فنقله إلى كريم جواره ، بعد مقاساة أنواع من التقصد والمناوأة من الخصوم . والسعى به إلى الملوك . وكفاه الله وحفظه وصانه من أن تنوشه أيدى المنكبات ، أو ينتهك ستر دينه بشىء من الزلات .

وكان خاتمة أمره إقباله على حديث المصطفى صلى الله عليه وسلم ، ومجالسة أهله ومطالعة الصحيحين : « البخارى » و« مسلم » اللذين هما حجة الإسلام ، ولو عاش لسبق الكل فى ذلك الفن ، بيسير من الأيام يستفرغه فى تحصيله ، ولاشك أنه سمع الأحاديث فى الأيام الماضية ، واشتغل إلى آخر عمره بسماعها ، ولم تتفق له الرواية .

ولا ضير فما خلفه من الكتب المصنفة فى الأصول والفروع وسائر الأنواع ، تخلد ذكره وتقرر عند المطالعين المستفيدين منها ، أنه لم يخلف مثله بعده .

* * *

مضى إلى رحمة الله يوم الاثنين الرابع عشر من جمادى الآخرة ، سنة خمس وخمسمائة ودفن بظاهر « قصبة طابران » والله تعالى يخصه بأنواع الكرامة فى آخرته ، كما خصه بفنون العلم فى دنياه ، بمنه .

ولقد كان الغزالى مصلحا اجتماعيا من الدرجة الأولى ، حاول أن يعرف أمراض المجتمع ليصلحها فلقد كانت النفوس خربة والضمائر مفقودة ، والأخلاق معدومة « وفلان من المشاهير بين الفضلاء لايصلى وفلان يشرب الخمر ، وفلان يأكل أموال الأوقاف ، وأموال اليتامى ، وفلان يأكل إدرار السلطان ولايحترز عن الحرام وفلان يأخذ الرشوة على القضاء والشهادة وهلم جرا إلى أمثاله » (١) وهذا هو الذى دعاه إلى ضرورة نشر العلم بعد إعراضه عن ذلك .

« فانقدح ذلك فى نفسى أن ذلك متعين فى هذا الوقت محتوم ، فماذا تغنيك الخلوة والعزلة ، وقد عم الداء ومرض الأطباء ، وأشرف الخلق على الهلاك » (٢)

ونقل فى الشذرات قول الإسنوى فى طبقاته « الغزالى إمام ، باسمه تنشرح الصدور وتحيا النفوس ، وبرسمه تفتخر المحابر ، وتهتز الطروس ، وبسماعه تخضع الأصوات وتخضع الرءوس ، ولما نفد من صديق أبيهما ماخلفه الوالد له ولأخيه أحمد ، وتعذر عليه القوت فقال : لكما أن تلجآ إلى المدرسة ، قال الغزالى ، فصرنا إلى المدرسة نطلب الفقه لتحصيل القوت ، فاشتغل بها مدة ، ثم ارتحل إلى أبى نصر الاسماعيلى بجرجان ثم إلى إمام الحرمين بنيسابور ، فاشتغل عليه ولازمه ، حتى صار أنظر أهل زمانه وجلس للإقراء فى حياة إمامه وصنف ، وينسب إليه شعر ، فمن ذلك مانسبه إليه ابن السمعانى ، فى « الذيل » و العماد الأصبهانى فى الخريدة :

حلَّت عقاربُ صدغهِ فى خده ... قمراً ، فَجلَّ به عن التشبيه

ولقد عهدناه يحلّ ببرجها ... فمن العجائب كيف حلَّت فيه

وأنشد العماد له أيضا :

هبنى صبوت كما ترون بزعمكم ... وحظيت منه بلثم ثُغْرٍ أزْهرِ

(١) ، (٢) المنقذ من الضلال للغزالى . ص١٤٨ طبعة مكتب النشر العربى بدمشق .

أنى اعتـزلتُ فـلا تلومـوا أنهٔ أضحى يقابلنى بوجهٍ أشعرى

فلما مات إمامه خرج إلى العسكر ، وحضر مجلس نظام الملك ، وكان مجلسه محط رجال العلم ، ومقصد الأئمة ، ومجاراة الخصوم اللد ، ومناظرة الفحول ، ومناطحة الكبار ، فأقبل عليه نظام الملك ، وحل منه محلا عظيما ، فعظمت منزلته وطار اسمه فى الآفاق ، وندب للتدريس بنظامية بغداد سنة أربع وثمانين وأربعمائه ، فقدمها فى تَجَمّل كبير وتلقاه الناس ونفذت كلمته ، وعظمت حشمته ، حتى غلبت على حشمة الأمراء والوزراء وضرب به المثل ، وشدت إليه الرحال ، إلى أن شرفت نفسه عن رزائل الدنيا فرفضها وطرحها ، وأقبل على العبادة والسياحة ، فخرج إلى الحجاز ، فى سنة ثمان وثمانين وأربعمائة ، فحج ورجع إلى دمشق واستوطنها عشر سنين وصنف فيها كتبا ، يقال : ان « الإحياء » منها ، ثم صار إلى القدس والاسكندرية ، ثم عاد إلى وطنه بطوس ، مقبلا على التصنيف والعبادة، و ملازمة التلاوة ونشر العلم ، و عدم مخالطة الناس ، ثم ان الوزير فخر الدين ابن نظام الملك حضر إليه وخطبه إلى نظامية نيسابور ، وألح عليه كل الإلحاح ، فأجاب إلى ذلك ، وأقام عليه مدة ، ثم تركه وعاد إلى وطنه ، على ماكان عليه ، وابتنى إلى جواره خانقاه للصوفية ، ومدرسة للمشتغلين ، ولزم الانقطاع ، ووظف أوقاته على وظائف الخير ، بحيث لايمضى لحظة منها إلا فى طاعة من التلاوة والتدريس ، والنظر فى الأحاديث ، خصوصا البخارى ، وادامة الصيام والتهجد ، ومجالسة أهل القلوب إلى أن انتقل إلى رحمة الله تعالى ، وهو البركة الشاملة ، وروح أهل الإيمان والطريق الموصلة إلى رضا الرحمن ، يتقرب بحبه إلى الله تعالى ، ولايبغضه إلا ملحد أو زنديق ، وقد أنفرد فى ذلك العصر عن أعلامه الزمان (انتهى كلام الإسنوى) .

وكان جريئا فى الحق ، ويقول كلمة صدق قوية تهتز لها عروش الحكام .

ففى رسائل الإمام الغزالى بالفارسية . قال الغزالى : لسنجر ابن ملك شاه السلجوقى حاكم خراسان « أسفا . . إن رقاب المسلمين كادت تنقض بالمصائب والضرائب، ورقاب خيلك كادت تنقض بالأطواق الذهبية » .

كما كتب لأخيه الأكبر محمد بن ملك شاه رسالة خطيرة قوية حثه فيها على ضرورة

الإصلاح ، والخوف من المنتقم الجبار ، يوم لاينفع مال ولابنون يوم البطش العظيم .

ورسالته إلى فخر الملك ضمن رسائله الفارسية رسالة قوية بليغة يقول فيها :

« اعلم أن هذه المدينة (مدينة طوس) أصبحت خرابا بسبب المجاعات والظلم ، ولما بلغ الناس توجهك من « اسفرائين » و « دامغان » خافوا ، وبدأ الفلاحون يبيعون الحبوب ، واعتذر الظالمون إلى المظلومين واستسمحوهم ، لما كانوا يتوقعون من انصاف منك ، واستطلاع للأحوال ونشاط فى الإصلاح . أما وقد وصلت إلى « طوس » ولم ير الناس شيئا فقد زال الخوف وعاد الفلاحون والخبازون إلى ماكانوا عليه من الغلاء الفاحش والإحتكار ، وتشجع الظالمون ، وكل من يخبرك من أخبار هذا البلد بخلاف ذلك ، فاعلم أنه عدو دينك ، واعلم أن دعاء أهل « طوس » بالخير والشر مجرب ، وقد نصحت للعميد كثيرا ، ولكنه لم يقبل النصيحة ، وأصبح عبرة للعالمين ونكالا للآخرين . اعلم يافخر الملك ! ان هذه الكلمات لاذعة مرة قاسية لا يجرؤ عليها إلا من قطع أمله عن جميع الملوك والأمراء فاقدرها قدرها ، فإنك لاتسمعها من غيرى ، وكل من يقول غير ذلك ، فاعلم أن طمعه حجاب بينه وبين كلمة الحق » .

وفى رسائل الإمام الغزالى الفارسية يجأر الإمام بالشكوى إلى الله تعالى « لقد بلغت المدية العظم ، وبلغ السيل الزبى ، وكاد المسلمون يستأصلون ، وأن ما قَسَّمَهُ الموظفون من الدنانير على أهل البلد – أمانة من الملك – أخذوا أضعافها من الرعية وانتهبها الظالمون والسفلة من الناس ، ولم يصل منها شيء إلى السلطان » .

وهذا كله يدلنا على مبلغ جرأته فى الحق .

٢ – تلاميذ الغزالى :

كانت مدرسة الغزالى الكبرى تضم بين جنباتها عشرات التلاميذ النجباء ، أسماؤهم المضيئة أشرقت فى كتب الطبقات وكتب التأريخ وغيرها من المؤلفات التى تحدثت عن حجة الإسلام الإمام الغزالى رضى الله عنه . كذلك نجد بعض هذه الأسماء الوضيئة فى "اتحاف السادة المتقين ، فى شرح إحياء علوم الدين" للسيد "مرتضى الزبيدى" وفى كتاب الدكتور

أحمد الرفاعي عن الغزالي .

ومن تلاميذ الغزالي (١) أبو النصر أحمد بن عبد الله بن عبد الرحمن الخَمْقَديُّ . نسبة إلىَ بَلَدٍ يُدْعى « خَمْسَ قُدىَ » وهو المعروف باسم شيخ ربِّه ، ولد سَنَةَ ست وستين وأربعمائة وتفقه بطوس على الإمام الغزالي وسمع الحديث من آخرين وتوفى سنة أربع وأربعين وخمسمائة .

ومنهم الإمام أبو الفتح أحمد بن على بن محمد بن برهان الأصولي وكان حنبليا ثم انتقل وتفقه على الشاشي ، وأبى حامد الغزالي والكيا (٢) وكان يَدْرُسُ في المدرسة النظامية في أنواع العلوم ، وكن يدرس للطلاب كتاب الإحياء في نصف الليل ولد سنة ست وسبعين وأربعمائة ، ووفاته سنة ثماني عشرة وخمسمائة .

ومنهم أبو منصور محمد بن اسماعيل بن الحسين بن القاسم العَّطاريُّ الطوسي الواعظ الملقب بُجنْدَةَ توفي سنة ست وثمانين وأربعمائة ، وتفَقه على أبي حامد في طوس ، وعلى أبي بكر السمعاني في « مرو » وسمع من البغوي كتبه ، ومن أبي الفتيان الدَّهشتاني الحافظ .

ومنهم الشديد أبو سعيد محمد بن أسعد بن محمد النُوقَّانيُّ ، تفقه على أبي حامد ، وقتل في مشهد على بن موسى الرِّضا في سنة أربع وخمسين وخمسمائة في واقعة الثغر .

وأبو عبد الله محمد بن عبد الله بن تومرت المصمودي الملقب بالمهدى صاحب دعوة سلطان المسلمين عبد المؤمن بن على ملك المغرب ، دخل المشرق فتفقه على أبي حامد الغزالي ، وله أخبار طويلة وسيرة مستفاضة .

وأبو حامد محمد بن عبد الملك بن محمد الجُوزقانيِّ الإسفراييني ، تفقه على الإمام الغزالي ببغداد ، وسمع ابن أبي عبد الله الحميدي الحافظ ، لَقِيَهُ ابن السمعاني في «اسفرايين » موطنه .

---

(١) الغزالي : جـ٢ للدكتور الرفاعي ص ١٦٩ : ١٧٦ .

(٢) أبو الحسن على بن محمد بن الطبرى المعروف بالكيا الهراسي الفقيه الشافعي المتوفى سنة ٥٠٤ هجرية والكيا معناه : الكبير القدير المقدم بين الناس .

وأبو عبد الله محمد بن علي بن عبد الله العراقي البغدادي ، تفقه على الغزالي والكيا والشاشي ، وبقي بعد الأربعين وخمسمائة .

وأبو سعيد محمد بن علي الجاواني الكردي ، حدث بكتاب « إلجام العوام » للغزالي عنه ، وقرأ المقامات الحريرية على مؤلِّفها .

والإمام أبو سعيد محمد بن يحيى بن منصور النيسابوري ، ولد سنة ست وسبعين وأربعمائة ، وهو من أشهر تلاميذ الغزالي ، تفقه عليه ، وشرح كتابه « البسيط » وسمع الحديث من أبي حامد بن عبدوس ونصر الله الخُشنْاَني ، وعليه تفقه الموفق الخُوشَانِيُّ المدفون تحت رجلْ الإمام الشافعي بمصر ، استشهد في رمضان سنة ثمان وأربعين وخمسمائة في واقعة الغُزّ .

ومنهم أبو طاهر ابراهيم بن الطُّهْرِ الشيباني حضر دروس إمام الحرمين أبي المعالي الجويني في نيسابور ، ثم صحب الغزالي ، وسافر معه إلى العراق والحجاز والشام ، ثم عاد إلى موطنه بجرجان وأخذ في التدريس والوعظ ، وقتل شهيدا سنة ثلاث عشرة وخمسمائة .

ومنهم أبو الفتح نصر بن محمد بن ابراهيم الأذربيجاني المراغي الصوفي ، حكى عن أبي حامد الغزالي وغيره ، وحكى عنه أبو سعد بن السمعاني قال : سمعت أبا الفتوح نصر بن محمد بن المراغي املاه بأصل طبرستان يقول : اجتمع الأئمة أبو حامد الغزالي ، واسماعيل الحاكمي ، وابراهيم الشُّبَّاكِيُّ ، وأبو الحسن البصري ، وجماعة كثيرة من أكابر الغرباء في مهد عيسى عليه السلام ببيت المقدس وأنشد فقال هذين البيتين :

فديتك ، لولا الحب كنت فَدَيْتَنِي
ولكن بسحر المقلتين سَبَيْتَنِي (١)

أتيتك لمّا ضاق صدري من الهوى
ولو كنت تدري كيف شوقي أتيتني

---

(١) سبيتني : أسرتني .

فتواجد أبو الحسن البصرى وجدًا أثّر فى الحاضرين ، فدمعت العيون ومزّقت الجيوب ، وتوفى محمد الكازَرونى من بين الجماعة فى الوجد ، قال المراغى : وكنت معهم حاضرا ذلك .

ومنهم الإمام أبو عبد الله الحسين بن نصر بن محمد بن الحسين الجهنى الموصلى تفقه على الغزالى وتوفى سنة اثنتين وخمسين وخمسمائة .

ومنهم خلف بن أحمد النيسابورى ، تفقه على الغزالى ، وله عنه تعليقة ، ذكره ابن الصلاح فى « مشكل الوسيط » وقال : بلغنى أنه توفى قبل الغزالى .

ومنهم أبو الحسن سعد الخير بن محمد بن سهل بن سعد الأنصارى البَلَنْسى المحدث، أحد السيّاحين ، تفقه ببغداد على الغزالى ، وسمع بها عن طرادٍ وابن البَطِر (١) وروى عنه السمعانى وابن الجوزى ، وابنته فاطمة بنت سعد ، وتوفى سنة احدى وأربعين وخمسمائة .

ومنهم أبو عبد الله شافع بن عبد الرشيد بن القاسم الجيلى ، تفقه على الكيا والغزالى ، وسمع الحديث بالبصرة ، وروى عنه السمعانى ، وتوفى سنة إحدى وأربعين وخمسمائة .

ومنهم أبو عامر دَغَش بن على بن أبى العباس النعيمى الموفقى ، خرج إلى طوس وأقام عند الغزالى مدة ، وأخذ عنه ، وتوفى سنة اثنتين وأربعين وخمسمائة .

ومنهم الأستاذ أبو طالب عبد الكريم بن على بن أبى طالب الرازى ، تفقه على الغزالى ببغداد ، وروى عنه أبو النصر الفامى مؤرخ هراة ، وكان أبو طالب يحفظ كتاب " الإحياء " سردا على القلب ، وتوفى " بمرو الروذ " سنة ثمان وعشرين وخمسمائة .

ومنهم الإمام أبو منصور سعيد بن محمد بن عمر بن منصور الرزاز ، ولد سنة اثنتين وستين وأربعمائة وتفقه على الشاشى والغزالى والمتولى والطبرى والكيا ، ودرس فى النظامية، وكانت وفاته سنة ثلاث وخمسمائة .

---

(١) هو أبو الخطاب نصر بن أحمد بن عبد الله بن البطر القارئ المحدّث . وُلِد سنة ٣٩٨ هـ وتوفى فى ١٦ ربيع الأول سنة ٤٩٤ هـ .

ومنهم أبو الحسن على بن محمد حمويه الجوينى الصوفى ، صحب الإمام الغزالى بطوس وتفقه عليه .

ومنهم أبو محمد صالح بن محمد بن عبد الله حرازم ، لقبه بالقوس ، وصحبه واتفقت له معه غريبة حكاها أحمد بن عبد الله بن القاضى السجلماسى فى كتابه « الإصليت » .

ومنهم أبو الحسن على بن المطهر بن مكى بن مُقْلاَحى الدينورى ، من كبار تلاميذ الغزالى فى الفقه وسمع الحديث من البطَر ، وطبقَتِه ، وروى عنه ابن عساكر ، وتوفى سنة ثلاث وثلاثين وخمسمائة .

ومنهم مروان بن على بن سلامة بن مروان بن عبد الله الطنزى من قرية بديار بكر ، ورد بغداد وتفقه بها على الغزالى والشاشى ، وروى عنه ابن عساكر توفى بعد الأربعين وخمسمائة .

ومنهم أبو الحسن على بن مسلم بن محمد على السلمى جمال الإسلام، لازم الغزالى مدة مقامه بدمشق وأخذ عنه ، ويحكى أن الغزالى قال بعد خروجه من الشام خلفت بالشام شابا إن عاش كان له شأن - يعنى جمال الإسلام هذا - فكان كما تفرسُ فيه .

* * *

ثانيا : من مؤلفات الغزالى

مدخل إلى وسائل البحث عند الغزالى :

قبل أن نتعرف على مؤلفات الغزالى ينبغى أن نتحدث عن وسائل البحث عنده . . والحقيقة إنه استخدم فى بحوثه وكتاباته وسائل علمية على درجة كبيرة من الأهمية فاستعان بالملاحظة والتأمل الباطنى والتجربة واستبار الناس ، والاستشهاد بالسلف وكان ملما بكل أطـراف بحـثه عالما بخفايا مشكلاته . . وقد أوضح لنا هذه النقطة الدكتور حسن الساعاتى (١) مستشهداً بنصوص الغزالى نفسه فى بيان ذلك .

فمن أمثلة استخدامه الملاحظة فى البحوث قول الغزالى فى " المنقذ من الضلال " فان وقع لك الشك فى شخص معين أنه نبى أم لا فلا يحصل اليقين إلاّ بمعرفة ، أحواله ، إما بالمشاهدة أو بالتواتر والتسامع ، فإنك إذا عرفت الطب والفقه يمكنك ان تعرف الفقهاء ، والأطباء بمشاهدة أحوالهم وسماع أقوالهم . (٢)

وبالنسبة للملاحظة المقيدة وهى المقترنة بالتجربة فيظهر ذلك مثلا من خلال حواره فى « رسالة القسطاس المستقيم » مع رفيق من رفقاء أهل التعليم إذ يقول على لسانه مجيبا عن سؤال : « فمن أين تعلم أن الميزان صادق ؟ أعلم ذلك علما ضروريا يحصل لى من مقدمتين : إحداهما تجريبية ، والأخرى حسية . أما التجريبية ، فهى أنى علمت بالتجربة أن الثقيل يهوى إلى أسفل ، وأن الأثقل أشد هويا ، والمقدمة الثانية ، هى أن هذا الميزان بعينه رأيته لم تهو إحدى كفتيه بل حاذت الأخرى محاذاة مساواة ، وهذه المقدمة حسية شاهدتها بالبصر » . (٣)

---

(١) فى بحثه بمهرجان الغزالى بدمشق عام ١٩٦١ بعنوان « المنهج الوضعى عند الغزالى » صفحة ٤٤٣ – ٤٤٨ باختصار .

(٢) المنقذ من الضلال : للغزالى ص ١٤٠ طبعة مكتب النشر العربى بدمشق ١٩٣٤ م .

(٣) القسطاس المستقيم للغزالى ص ١٥ و ص ١٦ باختصار طبعة مكتبة جعفر الحديثة بالحسين القاهرة ١٩٨١ .

أما بالنسبة للتأمل الباطنى فكان ذلك يتم بملاحظة النفس فى تقلباتها ومتابعة أحوالها ، والشعور بهواجسها وخطراتها وثباتها وتتبع ذلك بإمعان . . ولقد قدم لنا الغزالى صورة صادقة من التأمل الباطنى الصريح فى منقذه من الضلال حيث يقول : " ثم لاحظت أحوالى ، فإذا أنا منغمس فى العلائق ، وقد أحدقت بى من الجوانب ، ولاحظت أعمالى – وأحسنها التدريس والتعليم – فإذا أنا فيها مقبل على علوم غير مهمة ولانافعة فى طريق الآخرة . ثم تفكرت فى نيتى فى التدريس فإذا هى غير خالصة لوجه الله تعالى ، بل باعثها ومحركها طلب الجاه وانتشار الصيت . . فتيقنت أنى على شفا جُرُفٍ هارٍ ، وأنى قد اشفيتُ على النار ، إن لم أشتغلْ بتلافى الأحوال » (١)

وهذا تأمل باطنى دقيق وملاحظة عميقة للنفس وتتبع عميق لها فى أعمق أعماقها .

وبالنسبة للتجربة فى ميدان العلوم الاجتماعية فهى تعنى ملاحظة السلوك وسط ظروف مدبرة .

ومن هذه التجارب ماذكره الغزالى فى " الإحياء " حيث يقول " فإن الإنسان بعد رؤية الشيء يغمض عينه ، فيدرك صورته فى نفسه وهو فى الخيال، ثم تبقى هذه الصورة معه بسبب شيء يحفظه وهو الجند الحافظة أى " القدرة " ثم يتفكر فيما حفظه فيركب بعض ذلك إلى البعض ، ثم يتذكر ماقد نسيه ويعول إليه ، ثم يجمع جملة معانى المحسوسات فى خياله بالحس المشترك بين المحسوسات ، ففى الباطن حس مشترك ، وتخيل وتفكير ، وتذكر وحفظ .

أما استبار الناس فيظهر فى قول الغزالى " فإنى تتبعت مدة آحاد الخلق أسأل من يقصر منهم فى متابعة الشرع ، وأسأله عن شبهته وأبحث عن عقيدته وسره ، وقلت له : " مالك تقصر فيها ؟ فإن كنت تؤمن بالآخرة ولست مستعدا لها وتبيعها بالدنيا فهذه حماقة . فإنك لا تبيع الاثنين بواحد ، فكيف تبيع مالانهاية له بأيام معدودة ؟ . . فقائل يقول : " هذا أمر لو وجبت المحافظة عليه لكان العلماء أجدر بذلك وقائل ثان يدعى علم التصوف ، ويزعم

---

(١) المنقذ من الضلال للغزالى : ص ١٢٦ .

أنه قد مبلغا ترقى عن الحاجة إلى العبادة ! وقائل ثالث يتعلل بشُبْهةٍ أخرى من شبهات أهل الإباحة " .

ونلاحظ أن الغزالى يذكر آراء من سألهم واحدا واحدا ، ثم يفنِّدُ آراءهم ويرد على حججهم الواهية بحجج قوية .

أما مسألة الاستشهاد بالسلف فقد اعتمد عليها من خلال ماتواتر فى بطون كتب التراث من أخبار السلف الصالح ، وتمتلىء كتبه كلها بروائع المواقف العظيمة للقدوة الصالحة من أسلافنا المسلمين .

وهى استشهادات تزيد اليقين وتبين حقائق الأمور .

وأما الحديث فإننا نستطيع أن نقول إن بضاعة الغزالى كانت فيه قليلة . . لكنه فى السنوات الأخيرة من حياته اهتم بدراسة الحديث النبوى لمعرفة الحديث الصحيح من الضعيف .

وقد أخذ عليه بعض العلماء أنه ترخص فى النقل ورواية الأحاديث عن النبى والآثار عن الصحابة وأنه لم يكن يعتبر فى بعض المواضع ألفاظ الأخبار والآثار لأنه لم يكن يهتم بتحرير الألفاظ كما هى والحقيقة أن بعض العلماء رخصوا فى ذكر الحديث بالمعنى دون النص اللفظى مثل عبد الله بن عباس ، وعلى بن أبى طالب ، وأنس بن مالك ، والشافعى ، وابراهيم النخعى ومجاهد وعكرمة .

وقد ورد فى المسألة حديث مرفوع رواه ابن مَنْدَه فى معرفة الصحابة والطبرانى فى " الكبير " ، من حديث عبد الله بن سليمان بن أكثم الليثى قلت : يارسول الله إنى إذا سمعت منك الحديث لا أستطيع أن أرويه كما أسمع منك ، يزيد حرفا أو ينقص حرفا ، فقال إذا لم تحلوا حراما ولم تحرموا حلالا وأصبتم المعنى فلا بأس فذكر ذلك للحسن فقال : « لولا هذا ماحدثنا » .

ومع ماأخذ عليه من أنه أورد بعض الأحاديث الضعيفة فى " الإحياء " فقد خرجها الحافظ العراقى ، وبين أن أكثر ماقيل فيه عن إيراد أحاديث ضعيفة غير مستقيم ، إذ مقصده جميل لايتعدى حسن ظنه بالذين رووها فى كتبهم من قبله ونقل هو عنهم مثل

صاحب قوت القلوب فى معاملة المحبوب أبى طالب المكى .

والحقيقة أن الإمام الغزالى رضى الله عنه اهتم بدراسة الحديث فى اخريات حياته وأنه حين عاد إلى موطنه " طوس " اجتهد فى دراسة الحديث وقرءاته ونسخه ، واستدعى إليه الحافظ أبا الفتيان عمر بن أبى الحسن الرُّؤَاسِىّ فأكرمه واغتنم أيامه وسمع منه الصحيحين .

وذكر الحافظ ابن عساكر أنه سمع صحيح البخارى عن أبى إسماعيل الحفصى .

من مؤلفات الغزالى :

قال ابن السبكى « له فى المذهب (أى مذهب الشافعى) البسيط والوسيط والوجيز والخلاصة وفى سائر العلوم كتاب إحياء علوم الدين ، وكتاب الاربعين ، وكتاب الأسماء الحسنى ، والمستصفى فى أصول الفقه ، والمنخول فى أصول الفقه ألفه فى حياة أستاذه إمام الحرمين ، وبداية البداية ، والمآخذ فى الخلافيات ، وتحصين المآخذ ، وكيمياء السعادة بالفارسية والمنقذ من الضلال ، والبيان المنتحل فى الجدل ، وشفاء الغليل فى بيان مسائل التعليل ، والاقتصاد فى الاعتقاد ، ومعيار النظر ، ومحل النظر ، وبيان القولين للشافعى ، ومشكاة الأنوار ، والمشكاة فى الرد على الباطنية ، وتهافت الفلاسفة والمقاصد فى بيان اعتقاد الأوائل (وهو مقاصد الفلاسفة) ، والجام العوام عن علم الكلام ، والغاية القصوى ، وجواهر القرآن ، وبيان فضائح الامامية ، والمختصر الأخير ، وكتاب ميزان العمل وكتاب أسرار معاملات الدين . وكتاب فيصل التفرقة بين الإسلام والزندقة .

ونستطيع الآن أن نلقى الضوء على بعض مؤلفات الغزالى وأهمها :

١ - كتاب إحياء علوم الدين :

يعد كتاب " الإحياء " للإمام الغزالى من أهم كتب الفكر الإسلامى بما تضمنه من أفكار ثرية وأبواب عديدة شملت العبادات والمعاملات والأخلاق والتربية الإسلامية .

وبالرغم مما أخذه عليه ابن تيميه فى فتاويه (١) وابن الجوزى فى المنتظم (٢) إلا أن كتاب الإحياء يعتبر جامعة روحية عظيمة يستطيع المسلم من خلالها أن يتعرف على روح الإسلام وجوهر العقيدة الإسلامية الصافى .

وهذا الكتاب تضمن فكر الغزالى الأصيل حتى أننا نستطيع أن نقول بلا تحفظ إنه لو ذهبت كتب الغزالى وبقى « الإحياء » لأغنى هذا الكتاب عن سائر كتبه فهو كتاب يشيع العلم والنور والإيمان والمعرفة ويدعو إلى الأخلاق الفاضلة والآداب الحميدة كما يدعو إلى تزكية النفس وترقيتها حتى تصل إلى مقام الإحسان .

وقد اختصره الغزالى فى كتب ورسائل عدة منها الوجيز والمبسوط والمرشد الأمين .

يقول الغزالى : . . " رأيت الاشتغال بتحرير هذا الكتاب مهما لإحياء علوم الدين ، وكشفا عن مناهج الأئمة المتقدمين ، وإيضاحا لمناحى العلوم الناقصة عند النبيين والسلف الصالحين " (٣).

والحقيقة أن هناك مؤلفات عدة قبل كتاب الإحياء تضمنت نفس موضوعات الإحياء مثل كتاب « قوت القلوب » لأبى طالب المكى الذى استمد منه الغزالى الكثير من الأفكار والموضوعات إلا أن كتاب الإحياء تميز عن سائر الكتب التى سبقته فى نفس الموضوعات بأشياء عديدة منها حسن التنظيم والتبويب ، وحسن العبارة وجزالتها ، ويسر الأسلوب وبساطته .

ويقول الغزالى نفسه عن غرضه من وضعه « الإحياء » :

« . . إن الناس من قبله وضعوا كتبا فى مثل كتابه هذا ، ولكنه انماز (أى امتاز) عنهم بأمور خمسة : وهى : أولا – أنه حل ماعقدوه وكشف ما أجملوه ، وثانيا – أنه رتب

---

(١) فتاوى ابن تيمية جـ٢ صفحة ١٩٤ .

(٢) فى المنتظم جـ ٩ صفحة ١٦٩ – ١٧٠ طبع دائرة المعارف حيدر أباد وفى كتاب تلبيس إبليس انتقد ابن الجوزى الغزالى وأخذ عليه كثرة الأحاديث الضعيفة . . ومع ذلك فإن تأثير « الإحياء » عيه كان شديدا لدرجة أنه اختصر « الإحياء » فى كتابه المعروف « منهاج القاصدين » .

(٣) إحياء علوم الدين جـ١ صفحة ٣ طبعة الحلبى .

مابددوه ونظم مافرقوه وثالثا – أنه أجاز (أى : اختصر) ماطولوه ، وضبط ماقرروه ، والرابع – حذف ماكرروه وإثبات ماحرروه ، والخامس – تحقيق أمور غامضة ، اعتاصت (أى : صعبت) على الأفهام ، ولم يتعرض لها فى الكتب مطلقا ، إذ الكل وإن تواردوا على منهج واحد فلا مُسْتَنْكَرَ أن ينفرد واحد من السالكين بالتنبيه إلى أمر يخصه ويغفل عنه رفقاؤه .

ولقد شغف كثير من العلماء بهذا الكتاب وأعجبوا به إعجابا شديدا حتى بالغوا فى مدحه والثناء عليه نظرا لتأثيره القوى فى نفوسهم وعقولهم وفكرهم .

يقول الشيخ عبد الغافر الفارسى معاصر الغزالى وزميله فى التلمذة على إمام الحرمين الجوينى " إنه من تصانيفه المشهورة التى لم يسبق إليها (١) . ويقول عنه الحافظ العراقى (٢) " إنه من أجلّ كتب الإسلام (٣) ويقول ابن خلكان وهو من أنفس الكتب وأجمعها (٤) .

وقد رد الغزالى بنفسه على اعتراضات أوردها بعض معاصريه علي مواضع من " الإحياء " وذلك فى كتابه الإملاء على مشكل الإحياء (٥) .

ويسمى أيضا " الأجوبة المسكتة عن الأسئلة المبهتة " .

ويدافع عن كتاب الإحياء بعض العلماء مثل الشيخ عبد القادر بن عبد الله العيدروسى باعلوى صاحب « تعريف الإحياء » بفضل الإحياء (٦) .

---

(١) كتاب تعريف الأحياء بفضل الإحياء للشيخ عبد القادر بن شيخ العيدروس صفحة ١٥ .

(٢) هو الحافظ الإمام زين الدين أبو الفضل ، المعروف بالعراقى ، صاحب الألفية فى مصطلح الحديث وهو الذى خَرَّجَ أحاديث الإحياء .

(٣) كتاب تعريف الإحياء . . . صفحة ١٤ .

(٤) وفيات الأعيان جـ٣ صفحة ٣٥٤ .

(٥) طبع مع كتاب « اتحاف السادة المتقين » للمرتضى طبعة القاهرة ٣١١ هـ ، وعلى هامش بعض طبعا الإحياء بالقاهرة .

(٦) « تعريف الأحياء بفضل الإحياء » لعبد القادر العيدروس المتوفى سنه ١٠٣٨ هجرية – ١٦٢٨ م وقد طبع هذا الكتاب على هامش بعض طبعات كتاب الإحياء طبعة القاهرة .

ونظـــرا لأهمـــية كتاب " الإحياء " فقد شرحه المرتضى فى « اتحاف السادة المتقين » (١) .

ووضع للإحياء عدة تلخيصات من أهمها « لباب إحياء علوم الدين » (٢) لأخى الغزالى أحمد الملقب بأبى الفتوح احمد بن محمد الغزالى المتوفى بقزوين سنة عشرين وخمسمائة .

و « المرشد الأمين إلى موعظة المؤمنين من إحياء علوم الدين (٣) لجمال الدين محمد بن محمد سعيد بن صالح القاسمى الدمشقى و « صفوة الأحياء » لمحمود على قراعة (٤)

محتويات كتاب الإحياء :

كتاب الإحياء مؤلف من أربعة أجزاء (العبادات ، والعادات والمهلكات والمنجيات) . وكل قسم من هذه الأقسام مقسم إلى عشرة كتب .

والقسم الأول للعبادات وهو يشتمل على كتاب العلم وكتاب قواعد العقائد وكتاب أسرار الطهارة ، وكتاب أسرار الصلاة ومهماتها ، وكتاب أسرار الزكاة وكتاب أسرار الصوم ، وكتاب أسرار الحج ، وكتاب آداب تلاوة القرآن ، وكتاب الأذكار والدعوات ، وترتيب الأوراد فى الأوقات . وتفصيل إحياء الليل .

ووضع الغزالى قسما للعادات : يشتمل على كتب فى الأكل ، وآداب الزواج وأحكام الكسب والمعاش ، والحلال والحرام ، وآداب الصحبة والمعاشرة مع أصناف الخلق ، والعزلة ،

---

(٧) « اتحاف السادة المتقين بشرح أسرار إحياء علوم الدين لمحمد بن محمد بن الحسين المرتضى المتوفى سنة ١٢٠٥ هـ - ١٧٩١ م . وقد طبع فى فاس عام ١٣٠١ هـ - فى ١٣ جزءا ، وفى القاهرة عام ١٣١١ هجرية فى عشرة أجزاء .

(٨) « لباب إحياء علوم الدين » لأحمد الغزالى طبع على هامش كتاب " نزهة الناظرين " لعبد الملك بن المنير تقى الدين البابى الحلبى ١٣,٨ هـ ، و١٣٢٨ هـ .

(١) « المرشد الأمين . . . » للقاسمى الدمشقى فى جزءين طبع فى القاهرة ١٣٣١ هـ ، ١٣٤٨ هـ ، ١٩٢٩ م

(٢) « صفوة الإحياء » لمحمود على قراعة - طبع بالقاهرة ١٩٣٥ م .

وآداب السفر ، والسماع ، والوجد ، والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر وآداب المعيشة وأخلاق النبوة .

ووضع الغزالى قسما للمهلكات : ويشتمل على كتب فى شرح عجائب القلب ، ورياضة النفس ، وتهذيب الأخلاق وآفات الشهوتين شهوة البطن وشهوة الفرج ، وآفات اللسان ، وآفات الغضب ، والحقد والحسد ، وذم الدنيا وذم المال والبخل ، وذم الجاه والرياء ، وذم الكبر والعجب وذم الغرور .

وكذلك وضع الغزالى قسما للمنجيات : ويحتوى على كتب فى التوبة ، والصبر والشكر ، والخوف والرجاء والفقر والزهد والتوحيد والتوكل ، والمحبة والشوق والأنس والرضا ، والنية والصدق والإخلاص ، والمراقبة والمحاسبة والتفكير وذكر الموت ومابعده .

وحديثه عن الصلاة من أروع ماكتب فى هذا الموضوع فقد عرض روح الصلاة الخاشعة المتوجهة الى الله تعالى فى حضور قلب ، وطمأنينة نفس ، ذلك أنه فى إحياء علوم الدين يهتم اهتماما بالغا بأعمال القلب لا أعمال الجوارح فيركز على خفايا ودقائق المعانى وأسرارها .

« فأما ربع العبادات فأذكر فيه من خفايا آدابها ودقائق سننها وأسرار معانيها ما يضطر العالم العامل إليه بل لايكون من علماء الآخر من لايطلع عليه ، وأكثر ذلك مما اهمل فى فن الفقهيات » (١) .

وفى حديثه عن الصلاة يتناول الشروط الباطنة من أعمال القلب ويُبيّن ارتباط الصلاة بالخشوع وحضور القلب ثم يذكر المعانى الباطنة وحدودها وأسبابها وعلاجها .

ويذكر كذلك تفصيل ماينبغى أن يحضر فى كل ركن من أركان الصلاة لتكون صالحة لزاد الآخرة .

ويرى الغزالى أن حضور القلب هو روح الصلاة : فالمصلى مناج ربه سبحانه وتعالى والذكر فى الصلاة مع الغفلة ليس بمناجاة . . « ولا يكون نطقا إلا إذا أعرب عما فى

---

(١) الإحياء .. جـ١ صفحة ٣

الضمير ، ولايكون معربا إلا بحضور القلب ، فأى سؤال فى قوله (اهـدنا الصراط المستقيم) إذا كان القلب غافلا ؟ وإذا لم يكن يقصد كونه تضرعا ودعاء فأى مشقة فى تحريك اللسان به مع الغفلة لاسيما بعد الاعتياد . . ولا شك أن المقصود من القراءة والأذكار الحمد والثناء والتضرع والدعاء ، والمخاطب هو الله عز وجل وقلب المصلى بحجاب الغفلة محجوب عنه فلا يراه ولا يشاهده بل هو غافل عن المخاطب ولسانه يتحرك بحكم العادة فما أبعد هذا عن المقصود بالصلاة التى شرعت لتصقيل القلب وتجديد ذكر الله عز وجل ورسوخ عقد الإيمان به » (١) .

ويكاد يبطل الغزالى الصلاة إذا لم يحضرها القلب فهو يشترط حضور القلب شرطا لصحتها مخالفا بذلك إجماع الفقهاء فإنهم لم يشترطوا حضور القلب إلاّ عند التكبير فقط . ورسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « إن العبد المصلى الصلاة لا يكتب له سدسها ولاعشرها وإنما يكتب للعبد من صلاته ماعقل منها » (٢) .

وحقيقة أنه من الصعب على الإنسان أن يكون حاضر القلب فى كل صلاة وطوال الصلاة كلها ولهذا يقول :

« وهمة الرجل مع قرة عينه فإن كانت قرة عينه فى الدنيا انصرف لا محالة إليها همه ولكن مع هذا فلا ينبغى أن يترك المجاهدة ورد القلب إلى الصلاة وتقليل الأسباب الشاغلة فهذا هو الدواء المر ولمرارته استبشعته الطباع وبقيت العلة مزمنة وصار الداء عضالا حتى أن الأكابر اجتهدوا أن يصلوا ركعتين لايحدثوا أنفسهم فيها بأمور الدنيا فعجزوا عن ذلك فإذنْ لامطمع فيه لأمثالنا ، وليته سلم لنا من الصلاة شطرها أو ثلثها من الوسواس لنكون ممن خلط عملا صالحا وآخر سيئا .

وقد بين الغزالى المعانى الباطنة التى تتم بها حياة الصلاة وجمعها فى ست جمل وهى : حضور القلب ، والتفهم ، والتعظيم والهيبة والرجاء والحياء .

---

(١) الإحياء جـ ١ ص ١٦٠ .

(٢) الحديث أخرجه أبو داود والنسائى وابن حبان من حديث عمار بن ياسر بنحوه .

وقصد بحضور القلب أن يفرغ القلب عن غير ما هو ملابس له ومتكلم به فيكون العلم بالفعل والقول مقرونا بهما ، ولا يكون الفكر جائلا فى غيرهما . . ولكن التفهم لمعنى الكلام أمر وراء حضور القلب ، فربما يكون القلب حاضرا مع اللفظ ولا يكون حاضرا مع معنى اللفظ ، فاشتمال القلب على العلم بمعنى:اللفظ هو الذى أردناه بالتفهم .

وأما التعظيم فهو أمر وراء حضور القلب والفهم إذ الرجل يخاطب عبده بكلام هو حاضر القلب فيه ومتفهم لمعناه ولا يكون معظما له فالتعظيم زائد عليهما .

وأما الهيبة فزائدة على التعظيم ، والهيبة خوف مصدرها الإجلال ، وأما الرجاء فلا شك أنه زائد . . . والعبد ينبغى أن يكون راجيا بصلاته ثواب الله عز وجل كما أنه خائف بتقصيره عقاب الله عز وجل ، وأما الحياء فهو زائد على الجملة لأن مستنده استشعار وتوهم ذنب ولا يتصور التعظيم والخوف والرجاء من غير حياء حيث لايكون توهم تقصير وارتكاب ذنب .

« ولكل درجات مما عملوا » فحظ كل واحد من صلاته بقدر خوفه وخشوعه وتعظيمه فإن موقع نظر الله سبحانه القلوب دون ظاهر الحركات ولذلك قال بعض الصحابة رضى الله عنهم : يحشر الناس يوم القيامة على مثال هيئتهم فى الصلاة من الطمأنينة والهدوء ومن وجود النعيم بها واللذة ، ولقد صدق فإنه يحشر كل على ما مات عليه ويموت عليه ويموت على ماعاش عليه ، ويراعى فى ذلك حال قلبه لاحال شخصه فمن صفات القلوب تصاغ الصور فى الدار الآخرة ولاينجو إلاّ من أتى الله بقلب سليم » (١) .

ويبين لنا الغزالى الدواء الناجع فى حضور القلب ، ودفع الخواطر التى تشغل الإنسان أثناء صلاته ويقول « وسبب موارد الخواطر إما ان يكون أمرا خارجا أو أمرا فى ذاته باطنا .

أما الخارج فما يقرع السمع أو يظهر للبصر فإن ذلك قد يختطف الهَمّ حتى يتبعه ويتصرف فيه ثم تَنْجَرُّ الفكرة إلى غيره ويتسلسل ، ويكون الإبصار سببا للافتكار ، ثم

---

(١) الإحياء جـ ١ صفحة ١٦١ : ١٦٣ .

تصير بعض تلك الافكار سببا للبعض ، ومن قويت نيته وعلت همته لم يلهه ماجرى على حواسه ولكن الضعيف فلابد أن يتفرقّ به فكره ، وعلاجه قطع هذه الأسباب بأن يغض بصره أو يصلى فى بيت مظلم أولا بترك بين يديه ما يشغل حسه ويقرب من حائط عند صلاته حتى لاتتسع مسافة بصره ، ويحترز من الصلاة على الشوارع وفى المواضع المنقوشة المصنوعة وعلى الفرش المصبوغة . . . وأما الأسباب الباطنة فهى أشد ، ويعينه على ذلك أن يستعد له قبل التحريم بأن يجدد على نفسه ذكر الآخرة وموقف المناجاة وخطر المقام بين يدى الله سبحانه وهو المطلع ويفرغ قلبه قبل التحريم بالصلاة عما يهمه فلايترك لنفسه شغلا يلتفت إليه خاطره » (١) .

هكذا نلاحظ النظرة النفسية العميقة داخل عقل المصلى يقدمها لنا الغزالى فإنه يبين أثر قوة تداعى أفكار المصلى من خلال نوافذ البصر والسمع اللذين يؤديان إلى انشغال العقل وعدم حضور القلب وغفلته ، ثم يبين لنا أن غض البصر وكفه فى أثناء الصلاة أو الصلاة فى الظلام حيث أن الأضواء المبهرة قد تساعد على شغل النفس بها كما أن الصلاة على السجاجيد المزركشة والملونه قد يشغل الإنسان عن روح الصلاة .

ولقد كان الغزالى رائدا فى هذه النظرة النفسية العميقة حين أشار إلى العوامل الخارجية التى تساعد على عدم حضور القلب فى الصلاة والعوامل الداخلية ويعنى بها انشغال الإنسان بهمومه الجوانية والبرانية عن حقيقة روح الصلاة .

وكان اهتمام الغزالى كبيرا بـ « علم القلوب » وسماه « علم الآخرة » فى مقابل « علم الدنيا » وسماه « علم اليقين » كذلك .

وهو لم يجرح على الإطلاق الفقهاء الأربعة فهم فى نظره علماء بالآخرة بالإضافة إلى علمهم بالفقه .

وإنما نقد من أتى بعدهم ممن اقتدى بفقههم وحده دون علمهم فيقول « ماذكرناه ليس طعنا فيهم (أى فى الائمة) بل هو طعن فيمن أظهر الاقتداء بهم منتحلا مذاهبهم وهو

---

(١) الإحياء جـ ١ ص ١٦٣ و ص ١٦٤ .

مخالف لهم فى أعمالهم وسيرهم » (١) .

ويعتبر الغزالى أن من أهم وظائف الفقه الدنيوية ، وظيفته السياسية والحياتية فنتيجة لتنازع الشهوات كما يقول الإمام الغزالى تولدت الخصومات بين الناس « فمست الحاجة إلى سلطان يسوسهم واحتاج السلطان إلى قانون يسوسهم به ، فالفقيه هو العالم بقانون السياسة وطريق التوسط بين الخلق إذا تنازعوا بحكم الشهوات فكان الفقيه معلم السلطان ومرشده إلى طريق سياسة الخلق وضبطهم لتنتظم باستقامتهم أمور الدنيا .

وكما أن سياسة الخلق بالسلطة ليست من علم الدين فى الدرجة الأولى . . فكذلك معرفة طريق السياسة (أى الفقه).. وحاصل فن الفقه معرفة طرق السياسة والحراسة » .(٢)

فالفقه يهتم بالأمور الظاهرة للعبادات فيحكم الفقيه بصحة الإسلام باللسان تحت ظلال السيوف دون القلب مع أنه يعلم أن السيف لم يظهر له حقيقة نيته وسر طويته فى ذلك (اعلم أن أقرب مايتكلم الفقيه فيه من الأعمال التى هى من أعمال الآخرة ثلاثة : الإسلام والصلاة والزكاة والحلال والحرام) .

فإذا تأملت منتهى نظر الفقيه فيها علمت أنه لايجاوز حدود الدنيا إلى الآخرة ، وإذا عرفت هذا فى هذه الثلاثة فهو فى غيرها أظهر ، أما الإسلام فيتكلم الفقيه فيما يصح منه وفيما يفسد وفى شروطه وليس يلتفت فيه إلا إلى اللسان ، وأما القلب فخارج عن ولاية الفقيه لعزل رسول الله صلى الله عليه وسلم أرباب السيوف والسلطنه عنه حيث قال « هلا شققت عن قلبه » (٣) للذى قتل من تكلم بكلمة الإسلام معتذرا بأنه قال ذلك من خوف السيف ، بل يحكم الفقيه بصحة الإسلام تحت ظلال السيوف ، مع أنه يعلم أن السيف لم يكشف له عن نيته ولم يدفع عن قلبه غشاوة الجهل والحيرة ولكنه مثير على صاحب السيف فإن السيف ممتد إلى ماله وهذه الكلمة باللسان تعصم رقبته وماله مادام له رقبة ومال ، وذلك فى الدنيا ولذلك قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله

---

(١) الإحياء : جـ١ صفحة ٢٤ .

(٢) الإحياء جـ١ ص ١٧ ، ص ١٨

(٣) أخرجه مسلم من حديث أسامة بن زيد .

إلا الله فإن قالوها فقد عصموا منى دماءهم وأموالهم » (١) ، وأما الآخرة فلا تنفع فيها الأموال بل أنوار القلوب وأسرارها وإخلاصها وليس ذلك من الفقه (٢) .

أما الآخرة فموضوع علماء الآخرة . . علماء القلوب والمعاملة والمكاشفة إنهم أصحاب علم اليقين ولعل أهم صفة لعالم الآخرة « أن يكون شديد العناية بتقوية اليقين فإن اليقين هو رأس مال الدين » . . (٣) قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « اليقين الإيمان كله » (٤) .

موقف الغزالى من العلماء ورجال الدين :

يرى الغزالى أن فساد الشعوب والأمم يقع فى المقام الأول على العلماء ورجال الدين، لأن العلماء ملح الأمة ، وإذا فسد الملح فما الذى يُصلحه .

يامعشر القراء ياملح البلد . ·. مايصلح الملح إذا الملح فسد ؟

ويرجع الغزالى فساد الحكام والملوك والعمال والرعية إلى سوء العلماء والقضاة وفسادهم يقول : « بالجملة إنما فسدت الرعية بفساد الملوك ، وفساد الملوك لفساد العلماء ، فلولا القضاة السوء والعلماء السوء لقل فساد الملوك ، خوفا من انكارهم » (٥) .

ويقرع الغزالى العلماء ويفضح الذين يتقاعسون عن أداء فريضة الأمر بالمعروف ويبين أنهم وقعوا فى حب الدنيا وطلب المنزلة الرفيعة والجاه والشهرة ونظروا إلى عطاء الملوك والأمراء ونسوا أن الله تعالى هو الرزاق وأن العطاء عطاؤه ، وأن الأعمار بيده لابيد الحكام والملوك ، وبعد أن يقدم قصصا من التاريخ الإسلامى تبين شجاعة علماء السلف وقولهم كلمة الحق فى وجه الحكام والملوك دون خشيتهم يقول :

« وأما الآن فقد قيدت الأطماع ألسن العلماء فسكتوا ، وإن تكلموا لم تساعد أقوالهم

---

(١) متفق عليه من حديث أبى هريرة وعمرو وابن عمر .

(٢) الإحياء صفحة ١ جـ١ .

(٣) الإحياء جـ١ صفحة ٧٢ .

(٤) أخرجه البيهقى فى الزهد والخطيب فى التاريخ من حديث ابن مسعود بإسناد حسن .

(٥) الإحياء جـ٢ ص ١٣٢ .

أحوالهم فلم ينجحوا، ولو صدقوا وقصدوا حق العلم لأفلحوا ففساد الرعايا بفساد الملوك ، وفساد الملوك بفساد العلماء ، وفساد العلماء باستيلاء حب المال والجاه ، ومن استولى عليه حب الدنيا لم يقدر على الحسبة على الأرازل ، فكيف على الملوك والأكابر ؟ والله المستعان على كل حال . (١)

إن الغزالى وضع اصبعه على أحد أسرار فساد الشعوب والأمم . . انهم العلماء حين يستولى عليهم حُبّ المال والجاه والدنيا والطمع فيما فى أيدى الناس والحكام . . حين ينصرفون عن الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر إلى الانشغال بالأور الحياتية . . وبدلا من الخوف من الله خافوا من الناس ، وسطوة الحكام ، فظلموا الناس وظلموا انفسهم وأفسدوا الملوك والرعية ، فالتبعة فى ذلك تقع على علماء الدين لأنهم ملح الأمة ، وإذا فسد الملح فما الذى يصلحه .

ويهتم الغزالى بعمل العالِم وسلوكه فينبغى أن لايخالف فعله قوله بل لايأمر بالشىء مالم يكن هو أول عامل به ، قال تعالى « أتأمرون الناس بالبر وتنسون أنفسكم » وقال تعالى : « كبر مقتا عند الله أن تقولوا مالا تفعلون » ، وقال ابو الدرداء رضى الله عنه : " ويل لمن لايعلم مرة وويل لمن يعلم ولا يعمل سبع مرات "

وصدق من أنشد :

ياواعظ الناس قد اصبحت متهما .·. اذ عبتَ منهم أموراً أنت تأتيها

أصبحت تنصحهم بالوعظ مجتهدا .·. فالموبقات لعمرى أنت جانيها

تعيب دنيا وناسا راغبين لها .·. وأنت أكثر منهم رغبةً فيها

وقال آخر :

لا تنه عن خلق وتأتى مثله .·. عار عليك إذا فعلت عظيم

والغزالى يرى أن من أهم آفات علماء السوء إتيان العلماء الأمراء والحكام ، ويستشهد فى ذلك بطائفة من أقوال الصالحين ويعلق عليها فيقول : قال أبو ذر لسلمة :

---

(٢) الإحياء جـ ٢ ص ١٢ .

ياسلمة لاتغش أبواب السلاطين فإنك لا تصيب شيئا من دنياهم إلا أصابوا من دينك أفضل منه ، وهذه فتنة عظيمة للعلماء وذريعة صعبة للشيطان عليهم لاسيما من له لهجة مقبولة وكلام حلو إذ لايزال الشيطان يلقى إليه : أن فى وعظك لهم ودخولك عليهم مايزجرهم عن الظلم ويقيم شعائر الشرع إلى أن يخيل إليه أن الدخول عليهم من الدين ، ثم إذا دخل لم يلبث أن يتلطف فى الكلام ويداهن ويخوض فى الثناء والإطراء وفيه هلاك الدين .

وكان يقال : " العلماء إذا علموا عملوا ، فإذا عملوا شغلوا ، فإذا شغلوا فقدوا ، فإذا فقدوا طلبوا ، فإذا طلبوا هربوا " . (١)

كذلك يرى الغزالى أن من آفات علماء السوء المسارعة إلى الفتيا والإجابة دون تحقيق أو روية على كل استفسار خشية أن يتهم بالجهل وعدم المعرفة .. يقول لغزالى « . . . منها أن لايكون مسارعا إلى الفتيا بل يكون متوقفا ومتحرزا ما وجد إلى الخلاص سبيلا ، فإن سئل عما يعلمه تحقيقا بنص كتاب الله أو بنص حديث أو إجماع أو قياس جلى أفتى ، وإن سئل عما يشك فيه قال : لاأدرى وإن سئل عما يظنه باجتهاد وتخمين احتاط ودفع عن نفسه وأحال على غيره إن كان فى غيره غنية هذا هو الحزم لان تقلد خطر الاجتهاد عظيم وفى الخبر العلم ثلاثة : كتاب ناطق ، وسنة قائمة ، ولا أدرى (٢) قال الشعبى لا أدرى نصف العلم ومن سكت حيث لا يدرى لله تعالى فليس بأقل أجرا ممن نطق لأن الاعتراف بالجهل أشد على النفس فهكذا كانت عادة الصحابة والسلف رضى الله عنهم » (٣)

ويقول الغزالى : " كان ابن عمر رضى الله عنهما يسأل عن عشر مسائل فيجيب عن واحدة ويسكت عن تسع وكان ابن عباس رضى الله عنهما يسأل عن عشر مسائل فيجيب عن تسع ويسكت عن واحدة ، وكان فى الفقهاء من يقول « لاأدرى » أكثر ممن يقول « أدرى » منهم سفيان الثورى ومالك بن أنس وأحمد بن حنبل والفضيل بن عياض وبشر بن

---

(١) الإحياء جـ١ ص ٦٩ .

(٢) أخرجه الخطيب فى أسماء من روى عن مالك موقوفا على ابن عمر ، ولأبى داود وابن ماجه من حديث عبد الله بن عمر مرفوعا نحوه مع اختلاف .

(٣) الإحياء جـ ١ ص ٧٠ .

الحرث » (١) .

وكان بعض العلماء يحللون أخذهم عطايا الأمراء والحكام بقولهم إن كثيرا من السلف والتابعين قبلوا أموال الأمراء وهباتهم وعطاياهم .

ولكن الغزالي يبين مدى اجتراء هؤلاء العلماء على الحق ويكشف مدى ضلالهم وخبثهم ، ويفضح قياسهم الخاطىء حين يقول . . إن الظلمة في العصر الأول لقرب عهدهم بزمان الخلفاء الراشدين – كانوا مستشعرين من ظلمهم ، ومتشوقين إلى استمالة قلوب الصحابة والتابعين ، وحريصين على قبولهم عطاياهم و جوائزهم وكانو يبعثون إليهم من غير سؤال وإذلال ، بل كانوا يتقلدون المنّة بقبولهم ويفرحون به ، وكانوا يأخذون منهم ويفرقون ، ولايطيعون السلاطين في أغراضهم ولايغشون مجالسهم ، ولا يكثرون جمعهم ، ولايحبون بقاءهم ، بل يدعون عليهم ويطلقون اللسان ، وينكرون المنكرات منهم عليهم ، فما كان يحذر أن يصيبوا من دينهم بقدر ما أصابوا من دنياهم ، ولم يكن يأخذهم بأس .

فأما الآن ، فلا تسمح نفوس السلاطين بعطية إلا لمن طمعوا في استخدامهم والتكثر بهم ، والاستعانة بهم على أغراضهم ، والتجمل بغشيان مجالسهم ، وتكليفهم المواظبة على الدعاء والثناء ، والتزكية والإطراء في حضورهم ومغيبهم فلو لم يذل الآخذ نفسه بالسؤال أولا ، والتردد في الخدمة ثانيا والثناء والدعاء ثالثا ، والمساعدة له على أغراضه عند الاستعانة رابعا وبتكثير جمعه في مجلسه وموكبه خامسا ، وبإظهار الحب والموالاة والمناصرة له على أعدائه سادسا ، وبالستر على ظلمه ومقابحه ومساوىء أعماله سابعا ، لم ينعم عليه بدرهم واحد ولو كان في فضل الشافعي رحمه الله مثلا ، فإذاً لا يجوز أن يؤخذ منهم في هذا الزمان ما يعلم أنه حرام أو يشك فيه ، فمن استجرأ على أموالهم وشبه نفسه بالصحابة والتابعين ، فقد قاس الملائكة بالحدادين (٢) .

وهذه صرخة حق مدوية يعلنها الغزالي في وجه كل حاكم ظالم وكل عالم مداهن منافق

---

(١) الإحياء جـ١ ص ٧٠ .

(٢) الإحياء جـ ٢ ص ١٢٢ و ص ١٢٣ .

يتكسب من هؤلاء الحكام الظلمة . . بل أكثر من ذلك فإن الغزالى يطالب العلماء ببغض الظلمة وكراهية بقائهم واعتزال المتقربين إليهم والمتصلين بهم « فعليه أن يعتقد بغضهم على ظلمهم ولايحب بقاءهم ، ولا يثنى عليهم ، ولايستخبر عن أحوالهم ، ولا يتقرب إلى المتصلين بهم » (١) .

ويضرب الغزالى أمثلة ونماذج قدوة من العلماء الراشدين مثل المُحَدِّث الفقيه سفيان الثورى وما حدث له مع هارون الرشيد ، فعن أبى عمران الجونى (٢) قال : لماولى هارون الرشيد الخلافة زاره العلماء فهنوه بما صار إليه من أمر الخلافة ففتح بيوت الأموال وأقبل يجيزهم بالجوائز السنية ، وكان قبل ذلك يجالس العلماء والزهاد ، وكان يظهر النسك والتقشف ، وكان مؤاخيا لسفيان بن سعد بن المنذر الثورى قديما فهجره سفيان ولم يزره ، فاشتاق هارون إلى زيارته ليخلو به ويحدثه فلم يزره ولم يعبأ بموضعه ولا بما صار إليه ، فاشتدّ ذلك على هارون فكتب إليه كتابا يقول فيه : بسم الله الرحمن الرحيم ، من عبد الله هارون الرشيد أمير المؤمنين إلى أخيه سفيان بن سعيد بن المنذر ، أما بعد . يا أخى ، قد علمت أن الله تبارك وتعالى آخى بين المؤمنين ، وجعل ذلك فيه وله واعلم انى فد واخيتك مواخاة لم أصرم بها حبلك ، ولم أقطع منها ودك ، وانى منطولك على أفضل المحبة والإرادة ، ولولا هذه القلادة التى قلدنيها الله لأتيتك ولو حبوا لماأجد لك فى قلبى من المحبة واعلم ياأبا عبد الله أنه مابقى من إخوانى وإخوانك أحد إلا وقد زارنى وهنأنى بما صرت إليه وقد فتحت بيوت الأموال وأعطيتهم من الجوائز السنية ما فرحت به نَفْسى وقرت به عينى ، وأنى استبطأتك فلم تأتنى ، وقد كتبت لك كتابا شوقاً منى إليك شديدا ، وقد علمت ياأبا عبد الله ماجاء فى فضل المؤمن وزيارته ومواصلته ، فإذا ورد عليك كتابى فالعجل العجل ، فلما كتب الكتاب التفت إلى من عنده فإذا كلهم يعرفون سفيان الثورى وخشونته فقال : عَلَّى بِرَجُلٍ من الباب ، فأدخل عليه رجل يقال له عباد الطالقانى ، فقال : ياعباد خذ كتابى هذا فانطلق به إلى الكوفة فإذا دخلتها فسل عن قبيلة بنى ثور ، ثم سل عن سفيان الثورى فإذا رأيته فألق

---

(٢) الإحياء جـ ٢ ص ١٢٨ .

(٣) الإحياء جـ ٢ ص ٢٥٣ – ص ٢٥٥ .

كتابى هذا إليه ورع ، بسمعك وقلبك جميع مايقول فأحص عليه دقيق أمره وجليله لتخبرنى به،
فأخذ عباد الكتاب وانطلق به حتى ورد الكوفة فسأل عن القبيلة فأرشد اليها ثم سأل عن
سفيان فقيل له هو فى المسجد قال عباد : فأقبلت إلى المسجد فلما رآنى قام قائما وقال :
أعوذ بالله السميع العليم من الشيطان الرجيم وأعوذ بك اللهم من طارق يطرق إلا بخير .
قال عباد : فوقعت الكلمة فى قلبى فجرحت ، فلما رآنى نزلت بباب المسجد قام يصلى ولم
يكن وقت صلاة ، فربطت فرسى بباب المسجد ودخلت فإذا جلساؤه قعود قد نكسوا رؤوسهم
كأنهم لصوص قد ورد عليهم السلطان فهم خائفون منْ عقوبته ، فسلمت فما رفع أحد إلى
رأسه وردوا السلام على برءوس الأصابع ، فبقيت واقفا فما منهم أحد يعرض علّى الجلوس
وقد علانى من هيبتهم الرعدة ومددت عينى إليهم فقلت إن المصلى هو سفيان فرميت بالكتاب
إليه ، فلما رأى الكتاب ارتعد وتباعد منه كأنه حية عرضت له فى محرابه فركع وسجد وسلم
وأدخل يده فى كمه ولفها بعباءته وأخذه فقلبه بيده ثم رماه إلى من كان خلفه وقال : يأخذه
بعضكم يقرؤه فإنى استغفر الله أن أمس شيئا مسه ظالم بيده ، قال عباد : فأخذه
بعضهم فَحلّه كأنه خائف من فم حية تنهشه ، ثم فضه وقرأه ، وأقبل سفيان يتبسم تبسم
المتعجب فلما فرغ من قراءته قال : اقلبوه واكتبوا إلى الظالم فى ظهر كتابه ، فقيل له :
ياأبا عبد الله أنه خليفة فلو كتبت إليه فى قرطاس نقى ، فقال : اكتبوا إلى الظالم فى
ظهر كتابه فإن كان اكتسبه من حلال فسوف يجزى به ، وإن كان اكتسبه من حرام فسوف
يصلى به ولايبقى شىء مسه ظالم عندنا فيفسد علينا ديننا ، فقيل له : ما نكتب ؟ فقال
اكتبوا : بسم الله الرحمن الرحيم ، من العبد المذنب سفيان بن سعيد بن المنذر الثورى إلى
العبد المغرور بالآمال هارون الرشيد الذى سلب حلاوة الإيمان ، أما بعد : فإنى قد كتبت إليك
أعرفك أنى قد حرمت حبلك ، وقطعت ودك وقليت موضعك فإنك قد جعلتنى شاهداً عليك
بإقرارك على نفسك فى كتابك بما هجمت به على بيت مال المسلمين فانفقته فى غير حقه
وأنفذته فى غير حكمه ، ثم لم ترض بما فعلته وأنت ناء عنى حتى كتبت إلى تشهدنى على
نفسك ، أما انى قد شهدت عليك أنا وإخوانى الذين شهدوا قراءة كتابك ، وسنؤدى الشهادة
عليك غدا بين يدى الله تعالى ، يا هارون هجمت على بيت مال المسلمين بغير رضاهم ، هل

رضى بفعلك المؤلفة قلوبهم ، والعاملون عليها فى أرض الله تعالى المجاهدون فى سبيل الله وابن السبيل ؟ أم رضى بذلك خلق من رعيتك ؟ فشد ياهارون مئزرك وأعد للمسألة جوابا وللبلاء جلبابا ، وأعلم أنك ستقف بين يدى الحكم العدل ، فقد رزئت فى نفسك إذ سلبت حلاوة العلم والزهد ولذيذ القرآن ومجالسة الأخيار ورضيت لنفسك أن تكون ظسالما وللظالمين إماما ، ياهارون ، قعدت على السرير ، ولبست الحرير ، وأسلبت سترا دون بابك وتشبهت بالحجبة برب العالمين ، قد أقعدت أجنادك الظلمة دون بابك ، وسترك يظلمون الناس ، ولا ينصفون ؟ يشربون الخمور ويضربون من يشربها ، ويزنون ويجلدون الزانى ؟ ويسرقون ويقطعون يد السارق أفلا كانت هذه الأحكام عليك وعليهم قبل أن تحكم بها على الناس ؟ فكيف بك ياهارون غدا إذا نادى المنادى من قِبل الله تعالى : (احشروا الذين ظلموا وأزواجهم) أى الظلمة وأعوان الظَلمة ، فقدمت بين يدى الله تعالى ويداك مغلولتان إلى عنقك لايفكهما إلا عدلك وإنصافك ، والظالمون حولك وأنت لهم سابق وإمام إلى النار ، كأنى بك ياهارون وقد أخذت بضيق الخناق ووردت المساق ، وأنت ترى حسناتك فى ميزان غيرك وسيئات غيرك فى ميزانك زيادة عن سيئاتك ، بلاء على بلاء ، وظلمة فوق ظلمة ، فاحتفظ بوصيتى واتعظ بوعظتى التى وعظتك بها ، واعلم أنى قد نصحتك وما أبقيت لك فى النصح غاية ، فاتق الله ياهارون فى رعيتك واحفظ محمدا صلى الله عليه وسلم فى أمته ، وأحسن الخلافة عليهم ، واعلم أن هذا الأمر لو بقى لغيرك لم يصل اليك وهو صائر إلى غيرك وكذا الدنيا تنتقل بأهلها واحداً بعد واحد فمنهم من تزود زادا نفعه ومنهم من خسر دنياه وآخرته، فإياك أن تكتب لى كتابا بعد هذا فلا أجيبك عنه والسلام .

قال عباد : فألقى إلى الكتاب منشورا غير مطوى ولا مختوم فأخذته وأقبلت إلى سوق الكوفة وقد وقعت الموعظة من قلبى ، فناديت ياأهل الكوفة ، فأجابونى ، فقلت لهم : ياقوم ، من يشترى رجلا هرب من الله إلى الله ، ؟ فأقبلوا إلى بالدنانير والدراهم ، فقلت : لاحاجة لى فى المال ولكن جُبَّة صوف خشنة وعباءة قطوانية ، قال : فأتيت بذلك ونزعت ماكان على من اللباس الذى كنت ألبسه مع أمير المؤمنين ، وأقبلت أقود البرذون وعليه السلاح الذى كنت أحمله حتى أتيت باب أمير المؤمنين هارون حافيا راجلا ، فهزأ بى من

كان على باب الخليفة ، ثم استؤذن لى ، فلما دخلت عليه وبصر بى على تلك الحالة قام وقعد ، ثم قام قائما وجعل يلطم رأسه ووجهه ويدعو بالويل والحزن ويقول : انتقع الرسول وخاب المرسل ، مَالىِ وللدنيا ؟ ، مالى والملك يزول عنى سريعا ؟ ثم ألقيت الكتاب إليه منشورا كما دفع إلى ، فأقبل هارون يقرؤه ودموعه تنحدر من عينيه ، ويقرأ ويشهق ، فقال بعض جلسائه : يا أمير المؤمنين لقد اجترأ عليك سفيان فلو وجهت إليه فأثقلته بالحديد وضيقت عليه السجن كنت تجعله عبرة لغيره ، فقال هارون : اتركونا يا عبيد الدنيا ،المغرور من غررتموه ، والشقى من أهلكتموه ، وإن سفيان أمة وحده فاتركوا سفيان وشأنه ، ثم لم يزل كتاب سفيان إلى جنب هارون يقرؤه عند كل صلاة حتى توفى رحمه الله ، فرحم الله عبدا نظر لنفسه واتقى الله فيما يقدم عليه غدا من عمله ، فإنه عليه يحاسب ، وبه يجازى والله ولى التوفيق .

وعن عبد الله بن مهران قال : حج الرشيد فوافى الكوفة فأقام بها أياما ثم ضرب بالرحيل ، فخرج الناس ، وخرج بهلول المجنون فيمن خرج بالكناسة والصبيان يؤذونه ويولعون به ، إذ أقبلت هوادج هارون فكف الصبيان عن الولوع به ، فلما جاء هارون نادى بأعلى صوته : ياأمير المؤمنين ، فكشف هارون السجاف بيده عن وجهه فقال : لبيك يابهلول، فقال : ياأمير المؤمنين ، حدثنا أيمن بن نائل عن قدامة بن عبد الله العامرى قال : رأيت النبى صلى الله عليه وسلم منصرفا من عرفه على ناقة له صهباء لاضرب ولاطرد ولا إليك (١) وتواضعك فى سفرك هذا يا أمير المؤمنين خير لك من تكبرك وتجبرك ، قال : فبكى هارون حتى سقطت دموعه على الأرض ، ثم قال : يابهلول زدنا رحمك الله قال نعم ياأمير المؤمنين ، رجل آتاه الله مالا وجمالا فأنفق من ماله وعف فى جماله كتب فى خالص ديوان الله تعالى مع الأبرار ، قال : أحسنت يا بهلول ، ودفع له جائزة فقال : أُرْدُدْ الجائزة إلى من أخذتها منه فلا جاجة لى فيها ، قال : يابهلول فإن كان عليك دين قضيناه ، قال ياأمير

(١) حديث قدامة بن عبد الله العامرى : رأيت النبى صلى الله عليه وسلم منصرفا من عرفة على ناقة له صهباء لاضرب ولاطرد ولاإليك إليك . أخرجه الترمذى وصححه والنسائى وابن ماجه دون قوله منصرفا من عرفة وإنما قالوا : يرمى الجمرة ، وهو الصواب .

المؤمنين هؤلاء أهل العلم بالكوفة متوافرون قد اجتمعت آراؤهم أن قضاء الدين بالدين لايجوز - قال : يابهلول فنجرى عليك مايقوتك أو يقيك ، قال : فرفع بهلول رأسه الى السماء ثم قال : ياأمير المؤمنين أنا وأنت من عيال الله فمحال أن يذكرك وينسانى ، قال : فأسبل هارون السجاف ومضى .

وفى فترة اتصاله الوثيق بالقاعدة العريضة من المجتمع الاسلامى الذى كان يعيش فيه استطاع الغزالى أن يعرف عادات الحياة وتقاليدها وأساليبها الحياة فى هذه البيئات ، ووضع يده على عيوب الطبقات المختلفة ووضع فى " إحياء علوم الدين " بابا كاملا هو الباب الثالث من كتاب الامر بالمعروف والنهى عن المنكر [١] ، فتحدث من خلاله عن المنكرات المألوفة فى العادات مثل منكرات المساجد ، ومنكرات الأسواق ومنكرات الشوارع ومنكرات الضيافة والمنكرات العامة .

وفى الكتاب الثامن من الربع الرابع من ربع المنجيات من " إحياء علوم الدين " يتحدث الغزالى عن توبيخ النفس ومعاتبتها حديث عالم النفس الخبير بالنفوس البشرية وما أروع حديثه حين يقول [٢] « وإن لازمتها بالتوبيخ والمعاتبة والعذل والملامة كانت نفسك هى النفس اللوامة التى أقسم الله بها ، ورجوت أن تصير النفس المطمئنة المدعوة إلى أن تدخل فى زمرة عباد الله راضية مرضية ، فلا تغفلن ساعة عن تذكيرها ومعاتبتها ولاتشتغلن بوعظ غيرك مالم تشتغل أولا بوعظ نفسك ، أوحى الله تعالى الى عيسى عليه السلام يابن مريم ، عظ نفسك ، فإن اتعظت فعظ الناس ألا فاستحى منى ، وقال تعالى : « وذكر فإن الذكرى تنفع المؤمنين » وسبيلك أن تقبل عليها فتقرر عندها جهلها وغباوتها وإنها أبدا تتعزز بفطنتها وهدايتها ، ويشتد أنفها واستنكافها إذا نسبت إلى الحمق فتقول لها : يانفس ماأعظم جهلك تدعين الحكمة والذكاء والفطنة وأنت أشد الناس غباوة وحمقا ، أما تعرفين مابين يديك من الجنة والنار وأنك أشد الناس غباوة وحمقا ، أما تعرفين مابين يديك من الجنة

---

(١) وهو الكتاب التاسع من ربع العادات الثانى .

(٢) الإحياء جـ٤ صفحة ٤١٦ و ١٧ .

والنار وأنك صائرة إلى احداهما على القرب ؟ فمالك تفرحين وتضحكين وتشتغلين باللهو وأنت مطلوبة لهذا الخطب الجسيم وعساك اليوم تختطفين أو غدا ، فأراك ترين الموت بعيدا ويراه الله قريبا ؟ أما تعلمين أن كل ماهو آت قريب وأن البعيد ماليس بآت ؟ أما تعلمين أن الموت يأتي بغتة من غير تقديم رسول ومن غير مواعدة ومواطأة وأنه لايأتي في شيء دون شيء ولا في شتاء دون صيف ولا في صيف دون شتاء ولا في نهار دون ليل ولا في ليل دون نهار ولايأتي في الصبا دون الشباب ولا في الشباب دون الصبا بل كل نفس من الأنفاس يمكن أن يكون فيه الموت فجأة فإن لم يكن الموت فجأة فيكون المرض فجأة ثم يفضي إلى الموت فما لك لا تستعدين للموت ، وهو أقرب إليك من كل قريب ؟ أما تتدبرين قوله تعالى (اقترب للناس حسابهم وهم في غفلة معرضون مايأتيهم من ذكر من ربهم من محدث إلا استمعوه وهم يلعبون لاهية قلوبهم) ويحك يانفس إن كانت جراءتك على معصية الله لاعتقادك أن الله لايراك فما أعظم كفرك وإن كان مع علمك باطلاعه فما أشد وقاحتك وأقل حياءك ، ويحك يانفس لو واجهك عبد من عبيدك بل أخ من أخوانك بما تكرهينه كيف كان غضبك عليه ومقتك له فبأي جسارة تتعرضين لمقت الله وغضبه وشديد عقابه افتظنين أنك تطيقين عذابه هيهات هيهات ، جربي نفسك إن ألهاك البطر عن أليم عذابه فاحتبسي ساعة في الشمس أو في بيت الحمام أو قربي إصبعك من النار ليتبين قدر طاقتك ؟ أم تغترين بكرم الله وفضله واستغنائه عن طاعتك وعبادتك فما لك لاتعولين على كرم الله تعالى في مهمات دنياك ، فإذا قصدك عدو فلم تستنبطين الحيل في دفعه ولا تكلينه إلى كرم الله تعالى ، وإذا أرهقتك حاجة إلى شهوة من شهوات الدنيا مما لاينقضي إلا بالدينار والدرهم فما لك تنزعين الروح في طلبها وتحصيلها من وجوه الحيل فلا تعولين على كرم الله تعالى حتى يعثر بك على كنز أو يسخر عبدا من عبيده فيحمل إليك حاجتك من غير سَعْيٍ منك ولا طلب ؟ أفتحسبين أن الله كريم في الآخرة دون الدنيا وقد عرفت أن سنة الله لاتبديل لها وأن رب الآخرة والدنيا واحد وأن ليس للإنسان إلا ما سعى " ، ويحك يانفس ماأعجب نفاقك ودواعيك الباطلة فإنك تدعين الإيمان بلسانك وأثر النفاق ظاهر عليك ألم يقل لك سيدك ومولاك : (وما من دابة في الأرض إلا على الله رزقها) وقال في أمر الآخرة (وأن ليس للانسان إلا ماسعى) فقد تكفل لك

بأمر الدنيا خاصة وصرفك عن السعى فيها فكذبته بأفعالك وأصبحت تتكالبين عى طلبها تكالب المدهوش المستهتر ، ووكل أمر الآخرة إلى سعيك فأعرضت عنها إعراض المغرور المستحقر ، ماهذا من علامات الإيمان لو كان الإيمان باللسان فلم كان المنافقون فى الدرك الأسفل من النار ؟ ويحك يا نفس كأنك لاتؤمنين بيوم الحساب وتظنين أنك إذا مت انفلت وتخلصت وهيهات أتحسبين أنك تتركين سدى .

ويرى الدكتور عبد الرحمن بدوى أن هناك أثرا يونانيا فى باب « توبيخ النفس ومعاتبتها » فى كتاب المراقبة والمحاسبة من « إحياء علوم الدين » فهذا الباب فى رأيه قد احتذى فيه الغزالى نموذجا يونانيا رائعا ، هو كتاب « معاذلة النفس » المنسوب عادة إلى هرمس ، وأحيانا قليلة إلى افلاطون ، وهو من الكتب المنحولة الموضوعة فى العهد الهلينى المتأخر ، ويدعى أحيانا فى بعض المخطوطات باسم « كتاب معاذلة النفس » وأحيانا أخرى ينسب إلى أرسطو ويدعى « زجر النفس » كما أشار إلى ذلك حاجى خليفة . (١)

وقد نشر الدكتور عبد الرحمن بدوى كتاب « معاذلة النفس » ضمن كتابه « الأفلاطونية المحدثة عند العرب » وحقق فى مقدمته ان هذا الكتاب من العهد الهلينى المتأخر ، أى قبل الإسلام ، فيما بين القرنين الثالث والخامس الميلاديين ، وانه اثر من الآثار الهرمسية التى غزت الفكر اليونانى المتأخر ولعل كاتبه كان وثنيا زاهدا مؤمنا بالأفلاطونية المحدثة والغنوصية فهو إذن أدخل فى باب الأدب الهرمسى الذى انتشر انتشارا هائلا تحت اســم هرمس ، وهو اسم مجهول غامض ، وذلك فى فترة انحلال الحضارة اليونانية الرومانية .

ويستدرك الدكتور عبد الرحمن بدوى رأيه بقوله :

(٢) « . . لكن تأثر الغزالى إنما هو بالصياغة وطريقة المناجاة ، فالكتاب كان نموذجا أدبيا يونانيا عارضه الغزالى بنموذج إسلامى من نفس القالب ، وتتردد فيه أحيانا

---

(١) فى كتاب الظنون صفحة ٥٤٠ تحت رقم ٦٨٤٦ .

(٢) بحث د. عبد الرحمن بدوى نشر ضمن أبحاث مهرجان الغزالى بدمشق ص ٢٢٦ .

المعانى نفسها .

ولكن الغزالى حرص كل الحرص على أن يصبغه بالصبغة الإسلامية القرآنية ولعله اشتم فى نموذجه أن روحه يونانية وثنية وإن كانت زاهدة رفيعة السمو الروحى ، وإن القارىء لهذا الفصل فى كتاب «الإحياء» للغزالى ليدهشه هذا القالب الذى صبت فيه عباراته ، إذ لا تجد هذا القالب عند كاتب إسلامى آخر قبل الغزالى ولابعده .

ويقول الدكتور بدوى كذلك . . « ولكن هذا التشابه الواضح فى الصياغة وفى بعض المعانى البارزة يجب ألا ينسينا الفارق بين الكاتبين ، فهرمس (المنحول طبعا) يستخدم العبارات الفلسفية الأفلاطونية المحدثة كثيرا فى كلامه مثل العقل وكونه للنفس كالأب والطبيعة وكونها كالزوجة وكلامه عن ذار المحسوسات ودار المعقولات ، وإن النفس سجن البدن ، والجوهر الصورى . . يدخل فى الاصطلاحات الأفلاطونية المحدثة أما الغزالى فكلامه بسيط مستمد من معانى القرآن وعباراته دون إدخال أى اصطلاح فلسفى ، كما هو شأنه فى كتاب « الإحياء » كله لأنه يتجه به إلى عامة الناس ولهذا نستطيع أن نقول على وجه العموم إن الغزالى إنما تأثر بالروح العامة ثم بأسلوب الكتابة فى رسالة « معاذلة النفس » لهرمس ، وفيما عدا ذلك يدخل جل بل كل كلامه فى الإطار الاسلامى الخالص ، خصوصا وليس فى رسالة هرمس أدنى إشارة إلى حساب وعقاب وآخرة ، بينما الغزالى يحرص على توكيد هذه المعانى فى معاتبته للنفس بتخويفها بها لزجرها ، ومن هنا كان من الممكن استخراج فلسفة واضحة المعالم بادية الأسارير من رسالة هرمس أما عن فصل الغزالى فى « الإحياء » فلا نكاد نستخرج غير جمل مؤثرة فى الوعظ .

لكن ليس لنا أن نقوم بالتقويم بين الاثنين ، لأن هدف كليهما ، والجمهور الذى يتجه إليه كلاهما مختلف " (١) .

والحقيقة أن مابين « معاذلة النفس » لهرمس ، وباب توبيخ النفس ومحاسبتها للغزالى وعدد صفحاته سبع صفحات فقط هى ٤١٦ – ٤٢٢ من الجزء الرابع من كتاب «الإحياء»

---

(١) المرجع السابق ص ٢٢٩ .

أقول إن مابينهما من صلة لايرقى إلى مرقى التأثير والتأثير ، فروح كتابات الغزالى طابعها إيمانى عميق وكتابات هرمس يغلب عليها روح الوثنية اليونانية رغم مايشوب كتاباته فى « معاذلة النفس » من زهد وغنوصية ظاهرة . . وأنه من الخطأ أن نقول ببساطة هكذا أن الغزالى قد تأثر فى هذا الباب بكتابات « هرمس » الوثنى الزاهد المتأثر بالأفلاطونية المحدثة والغنوصية . لهذا أزعم أن الأستاذ الدكتور بدوى خانه التوفيق فى هذه الملاحظة ، ولعل ذلك راجع إلى فكرة مسبقة فى ذهنه وفى تأثر الغزالى بالأفلاطونية المحدثة والفلسفة اليونانية تأثرا كبيرا ، ولو أنه نظر إلى المسألة بنزاهة وموضوعية وبدون فكرة أو اتجاه مسبق مارأى هذا الرأى وما اتجه هذا الاتجاه – وبالذات – فى إحياء علوم الدين .

٢ – مشكاة الأنوار :

من أبدع وأجمل رسائل الغزالى هذه الرسالة الرائعة .

وقد شك بعض الباحثين فى صحة نسبة رسالة « المشكاة » إلى الغزالى منهم ، الدكتور عبد القادر محمود [١] الذى يقول « . . وقد لاحظت بمقارنة حديث الحجب والتجلى ، تجلى الله الأعظم فى نوره المحمدى عبر الأنبياء والأولياء – أقول (أى الدكتور عبد القادر محمود) إنى لاحظت أن مضمونه يتسق ويوثق تمام التوثيق بما ذكره الغلو الشيعى عن الإمام جعفر الصادق زورا – بأنه روى عن الإمام على أن النور المحمدى كان منطويا على حجاب القدرة سبعة آلاف سنة ، وعلى حجاب الهداية خمسة آلاف سنة ، وعلى حجاب اللطف تسعة آلاف سنة والغزالى من هذا براء » . [٢]

ويقول الدكتور عبد القادر محمود[٣] . . نلاحظ أن « المشكاة » ترادف بين معنى الروح أو الأمر الإلهى وبين النبى صلى الله عليه وسلم وهذا لم ينطق به ولم يشر إليه الغزالي على الإطلاق هنا أو لدى أى مؤلف من مؤلفاته المنحولة الأخرى فضلا عن الأصيلة ، فى

---

(١) الفلسفة الصوفية فى الإسلام طبعة دار الفكر العربى بالقاهرة صفحة ٢١١ – ٢١٥ .

(٢) خاصة الأخبار لمحمد تقى الخونسارى صفحة ٢٨ .

(٣) الفلسفة الصوفية فى الإسلام صفحة ٢١٢ .

الوقت الذى تصل المشكاة الغزالى بركب الفيض والصدور ووحدة الشهود والاتجاه والميل إلى الاتحاد والحلول وهو الذى ذكر فى أمهات كتبه أن كل هذا خطأ بل كفر هذه الاتجاهات .

... ولاشك أن هذا الاتجاه يمضى بالغزالى بالركب المنفصل وهو منه براء . ويذكر أن « فنسك » ألقى الشك على الفصل الأول من المشكاة وأن مونتجومرى وات أكد أن الفصل الثالث منها منحول (١)

والحقيقة أن كل ما حوله « فنسنك » هو محاولة متواضعة كى يثبت أن القسم الأول من « مشكاة الأنوار » مجرد تلخيص للفصل الخامس من التساع الرابع من تساعات أفلوطين وهى محاولة متعسفة كل التعسف .

أما بالنسبة لمونتجومرى وات فقد رد على مزاعمه الدكتور بدوى حين قال (٢) : " زعم مونتجومرى وات فى بحث ألقاه بمؤتمر المستشرقين فى باريس سنة ١٩٤٨ (ونشره بعد ذلك فى J R A S * لسنة ١٩٤٩ م ص ٥ – ص ٢٢) أن الفصل الثالث من « مشكاة الأنوار » فى معنى قوله صلى الله عليه وسلم أن لله سبعين حجابا من نور وظلمة لو كشفها لاحرقت سبحات وجهه كل من أدركه بصره . . نقول إنه زعم أن هذا الفصل الثالث منحول ومقحم على النص الأصلى لمشكاة الأنوار بدعوى أن فصل « الحجب » هذا ، على حدٍّ تعبيره، هو ذو نزعة أفلاطونية محدثة واضحة . . بينما الغزالى لم يتنصل فى أى موضع آخر – صراحة أو تضمينا من النقد الذى وجهه إلى الأفلاطونية المحدثة فى كتاب « التهافت » وإن كان قد اقترب منها من عدة نواح (صفحة ٢١ – ٢٢ من المقالة المذكورة) .

ويقول الدكتور بدوى وقد رددت عليه بعد إلقائه بحثه فى مؤتمر المستشرقين فقلت له أنه توجد نسخة مخطوطة من كتاب « مشكاة الأنوار » فى المجموعة رقم ١٧١٢ بمكتبة شهيد على باشا باستنبول ، وهذا المجموع تاريخ كتابته سنة تسع وخمسمائة بخط وملك عبد المجيد بن الفضل الفزارى الطبرى ومنه صورة شمسية فى دار الكتب المصرية برقم ٣٦٦٢

---

(١) المرجع السابق ٢١٣ .

(٢) مؤلفات الغزالى للدكتور بدوى صفحة ١٩٧ .

* المقصود مجلة الجمعية الملكية الآسوية Journal of Royal Asiatic Society

تصوف ، أى بعد وفاة الغزالى بأربع سنوات ، وفيه الفصل الثالث هذا ، وهذه حجة قاطعة تقضى على دعواه ، إذ لاسبيل إلى الشك فى صحة تاريخ هذه المخطوطة ، فضلا عن أن الغزالى نفسه أشار إلى هذا الفصل فى مقدمة المشكاة .

من كل ذلك يتضح لنا صحة نسبة رسالة « المشكاة » إلى الغزالى التى لانشك فى نسبتها لحجة الإسلام الإمام الغزالى رضى الله عنه .

ولعل من أفضل الردود على « مونتجومرى وات » رد أستاذنا الجليل أبو العلا عفيفى فى مقدمته الرائعة لمشكاة الأنوار حيث قال (٢) : ذهب « مونتجمرى وات » فى مقالة له نشرت فى المجلة الآسيوية الملكية سنة ١٩٥٤ إلى أن الفصل الثالث من المشكاة فصل منتحل وأن مؤلفه كان أحد الكتاب المتأثرين بفلسفة ابن سينا فى إثبات وحدة الأول على نحو مافسرها ابن سينا فى كتاب النجاة وذلك على أساس أن الإسلام السنى كان يفهم (التوحيد) دائما بمعنى نفى الشريك لله لا بمعنى الوحدة الذاتية ، وأن هذا المعنى الأخير هو ماذهب إليه أصحاب الأفلاطونية الحديثة الذين نفوا كل معنى من معانى التعدد فى ذات الواحد : وبذلك نفوا الصفات الإلهية .

ويقول الدكتور أبو العلا عفيفى : وهذه كلها مقدمات لاأرى فيها مايبرر استنتاج الأستاذ « مونتجومرى وات » أن فصل الحجب فى جملته منحول ومقحم على رسالة المشكاة، لأن الغزالى لم ينكر صفات الله فى هذا الفصل وإنما أنكر كيفية إطلاقها على الله عند مختلف فرق المتكلمين والفلاسفة ، فهو لم ينكر أن الله عالم قادر مريد متكلم . . . الخ ، ولكنه أنكر إطلاق هذه الصفات على الله على النحو الذى يطلقها عليه المشبهة ، ولم ينكر أن الله نور ، ولكنه أنكر أن يطلق هذا الوصف على معبود آخر كالشمس أو القمر أو الكواكب الأخرى ، ولم ينكر أن الله قهار ولكنه أنكر أن تطلق هذه الصفة الإلهية على موجود مادى كالنار عند من يعبدونها .

ولم يكن هم الغزالى وهو يتكلم عن تنزيه الله أن ينفى الشريك للبارى فقط ، بل كان

---

(١) المشكاة .. صفحة ٣٠ - وصفحة ٣١ .

همه أيضا أن يقرر الوحدة الذاتية لله ، ومشكلة الصفات عند متكلمى الإسلام وفلاسفتهم هى مشكلة الوحدة الذاتية الإلهية .

ثم إن « وات » لم ينتبه إلى أن الغزالى فى هذا الفصل حاول أن يحل مشكلة الصفات على أساس صوفى بعد أن بحثها من الوجهة الكلامية والفلسفية « فالواصلون » فى اصطلاح الغزالى هم الصوفية أصحاب الذوق الذين يدركون الله إدراكا مباشرا ، ويرونه مقدسا منزها عن جميع مايخطر ببالنا وصفه به أما « وات » فيقول إن الواصلين الذين يتكلم عنهم الغزالى لا يمتازون عن غيرهم من المحجوبين إلا فى أنهم يأخذون بنظرية « المطاع » ، ثم يقول إن فصل الحجب ليس له توطئة تمهد له فى الرسالة ، وأى توطئة للكلام عن الحجب أقوى من ذكر النور وأنواعه ودرجاته : لأن الحجب التى تكلم عنها الغزالى حواجز تخفى هذا النور وتحول دون ظهوره وجلاله ، فإذا ارتفعت الحجب بجميع أنواعها ظهر النور الإلهى القاهر وأحرقت سبحات وجه الله كل ما أدركه بصر الناظرين وبصيرتهم كما يقول الحديث .

وفيم الشك فى نسبة الفصل الثالث من الرسالة إلى الغزالى وهو يقرر فيها أنها مؤلفة من ثلاثة فصول — لامن فصلين ، ويشير صراحة إلى حديث الحجب الذى هو موضوع الفصل الثالث ، ويحيل فى الفصلين الأول والثانى على الفصل الثالث وفى الفصل الثالث عليهما ؟

ومما يثبت صحة نسبة الفصل الثالث إلى الرسالة أنه ورد برمته فى مخطوطة شهيد على التى كتبت سنة ٥٠٩ هـ أى بعد وفاة الغزالى بأربع سنوات .

. . وأخيرا نرى ابن طفيل يقتبس فقرة طويلة هامة من هذا الفصل فى رسالة « حى بن يقظان » من غير أن يثير إشكالا حول صحة نسبته إلى الغزالى .

فالشواهد كلها مجمعة على أن فصل " الحجب " فى رسالة المشكاة جزء أصيل منها متمم للفصلين السابقين عليه ، وأنه من حيث المادة والأسلوب متمشٍ مع بقية الرسالة غير مقحم عليها .

الترجمة والدراسات حول مشكاة الأنوار :

من أهم الدرسات عن المشكاة مقال كتبه « فنسنك » في « ليدن» سنة ١٩٤٤ في عشر صفحات (١) .

– وبحث نشره جيردنر W . H . T . Gairdner بمجلة الإسلام DER - ISLAM بالإنجليزية بعنوان « مشكاة الأنوار ومشكاة الغزالي » سنة ١٩١٤ (٢)

– وبحث مونتجومري وت بمجلة الجمعية الملكية الاسيوية سنة ١٩٤٩ .

ويقول الدكتور أبو العلا عفيفي في تصديره للكتاب لم تحظ المشكاة من الترجمات إلى اللغات الأوربية الا بثلاث : الأولى ترجمة إلى اللاتينية . قام بها اسحق بن يوسف الفاسي ، والثانية إلى اللاتينية أيضا وقد قام بها مترجم مجهول ، والثالثة إلى الإنجليزية قام بها جيردنرسنة ١٩٢٤ (٣) .

والواقع أن أستاذنا الجليل الدكتور أبو العلا عفيفي رحمه الله وأسكنه فسيح جناته جانبه الصواب بالنسبة للترجمتين اللاتينيتين ، فالحقيقة أنهما ترجمتان عبريتان لا لاتينيتان كما ذكر ، فكما أشار الدكتور بدوي في مؤلفات الغزالي (٤) إن الذي ترجم مشكاة الأنوار إلى العبرية اسحق بن يوسف الفاسي ، ومن هذه الترجمة مخطوطتان في مكتبة بودلي باكسفورد برقمي ٣٢٥ و ٣٩٢ مخطوطات عبرية ، والأول ينقصه آخره ، واسحق بن يوسف الفاسي غير اسحق الفاسي بن يعقوب (المتوفى سنة ١١٠٣ في لوثينا) وهو من علماء

---

(١) وفي هذا المقال حاول فنسنك أن يثبت أن القسم الأول من مشكاة الأنوار ليس إلا تلخيصا للفصل الخامس من التساع الرابع من تساعات أفلوطين وهو بذلك يحاول أن يلقي بعض الشكوك حول صحة نسبة الفصل الأول الغزالي ، لكن النسبة صحيحة .

(٢) W . H . T . Gairdner : " Al . Ghazáli's Miskat al . Anwar and the Gazali - problem" in Der Isam, Vol - 4.1914 .

(٣) مشكاة الأنوار للغزالي تحقيق د . عفيفي ص ٩ .

(٤) مؤلفات الغزالي للدكتور بدوي ص ١٩٦ .

التلمود المشهورين ، ويقول اشتينشنيدر إن المترجم لعله والد موسى بن اسحق الفاسى الذى كان يعيش فى سنة ١٢٩٨ م .

وتوجد ترجمة عبرية أخرى لمترجم مجهول ، فى مخطوط بالفاتيكان برقم ٢٠٩ وقد فسر DUKES الفصل الثالث من هذه الترجمة العبرية تبعا للمخطوط الناقص I.P.XPP.P.9 O وكما ذكرنا فقد ترجمها إلى الإنجليزية W.H.T . GAIRDNER, LONDON 1924

ويقع كتاب مشكاة الأنوار (١) للإمام أبى حامد الغزالى فى ثلاثة فصول الفصل الأول فى بيان أن النور الحق هو الله تعالى وأن اسم النور لغيره مجاز مَحْض لا حقيقه له ، والفصل الثانى فى بيان مثال المشكاة والمصباح والزجاجة والشجر والزيت والنار ، وبيان مراتب الأرواح البشرية النورانية ، والفصل الثالث فى معنى قوله صلى الله عليه وسلم « إن لله سبعين حجابا من نور وظلمة لو كشفها لاحرقت سبحات وجهه كل من أدركه بصر » وقسمه إلى المحجوبين بمحض الظلمة والمحجوبين بنور مقرون بظلمة ، والمحجوبين بمحض الأنوار .

وموضوع الرسالة إجابة لسؤال من أخ كريم سأله أن يبث له أسرار الأنوار الإلهية مقرونة بتأويل مايشير إليه ظواهر الآيات المتلوة والأخبار المروية مثل قوله تعالى « الله نور السموات والأرض » (النور : ٣٥) ومعنى تمثيله ذلك بالمشكاة والزجاجة والمصباح والزيت والشجرة ، مع قوله صلى الله عليه وسلم « إن لله سبعين حجابا من نور وظلمة وأنه لو كشفها لاحرقت سبحات وجهه كل من أدركه بصره » .

ونتلمس فى هذه الرسالة إرهاصات فلسفة اشراقية فى فكر الغزالى ومن خلال منهجه فى التأويل يحاول أن يستخدم بعض التأويلات الباطنية يكشف من بين ثناياها عن

---

(٤) طبع الكتاب فى القاهرة سنة ١٣٢٢ هـ ، سنة ١٣٢٥ هـ ، وسنة ١٩٢٩ م ، وسنة ١٣٥٢ هـ ضمن مجموعة " الجواهر الغوالى من رسائل الإمام حجة الإسلام الغزالى " نشرها صبرى الكردى ، وطبع بحلب ١٩٢٢م ، وطبع طبعة محققة للدكتور أبو العلا عفيفى رحمه الله طبعة الدار القومية بالقاهرة ١٩٦٤ ، وهى الطبعة التى اعتمدنا عليها فى هذه الدراسة .

مكنونات إشارات ورموز باطن الآية والحديث .

ويقول الغزالى لصاحب السؤال « ولقد ارتقيت بسؤالك مرتقى صعبا تنخفض دون أعاليه أعين الناظرين ، وقرعت بابا مغلقا لايفتح إلا للعلماء الراسخين ، بل صدور الأحرار قبور الأسرار . .

. . لكنى أراك مشروح الصدر بالله منزه السر عن ظلمات الغرور ، فلا أشح عليك فى هذا الفن بالاشارة إلى لوامع ولوائح ، والرمز إلى حقائق ودقائق ، فليس الخوف فى كف العلم عن أهله بأقل منه فى بثه إلى غير أهله .

فمن منح الجهال علما أضاعه . ' . ومن منع المستوجبين فقد ظلم

« فاقنع بإشارات مختصرة وتلويحات موجزة » (١)

فالغزالى يقدم لنا فى هذه الرسالة مجرد إشارات وتلويحات مختصرة ولوامع ولوائح سريعة فقد جاء فى الأثر « إن من العلم كهيئة المكنون لايعلمه إلا العلماء بالله فإذا نطقوا به لم ينكره إلا أهل الغرة بالله ومهما كثر أهل الاغترار وجب حفظ الأســرار على وجــه الإســرار » .

وموضوع الفصل الأول من الرسالة فى بيان أن النور الحق هو الله تعالى وان اسم النور لغيره مجاز محض لا حقيقة له « وبيانه بأن يعرف معنى النور بالوضع الأول عند العوام ، ثم بالوضع الثانى عند الخواص ، ثم بالوضع الثالث عند خواص الخواص ، ثم تعرف درجات الأنوار المذكورة المنسوبة إلى خواص الخواص وحقائقها لينكشف لك عند ظهور درجاتها أن الله تعالى هو النور الأعلى الأقصى وعند انكشاف حقائقها أنه النور الحق الحقيقى وحده لاشريك له فيه (٢) .

والغزالى يريد أن يؤكد حقيقة كبرى هى أن الله تعالى هو نور الأنوار الذى تبعث منه كل الأنوار التى تسمى أنواراً مجازا أما النور الحقيقى الحق فهو نور الله تعالى .

---

(١) المشكاة صفحة ٣٩ وصفحة ٤٠ .

(٢) المشكاة صفحة ٤١ .

ومعنى النور بالوضع الأول عند العامى أنه يشير إلى الظهور وهو عبارة عما يبصر بنفسه ويبصر به غيره كالشمس ، هذا حَدُّهُ وحقيقته بالوضع الأول ، فالنور عند العوام يقصد به الظهور ، والظهور أمر إضافى : إذ يظهر الشىء لا محالة لانسان ويبطن عن غيره، فيكون ظاهرا بالإضافة وباطنا بالإضافة ، وإضافة ظهوره إلى الإدراكات لا محالة ، وأقوى الإدراكات وأجلاها عند العوام الحواس ، ومنها حاسة البصر (١) .

والنور لايدرك ولايبصر إلا من خلال عين باصرة تبصره ولهذا اعتبر الغزالى الروح الباصرة ركنا أساسيا فى إدراكه لأنها المدركة وبها الإبصار والإدراك .

لهذا يتدرج الإمام الغزالى فى إلقاء الظلال على معنى النور عند الخواص فيقول« وأطلقوا اسم النور على نور العين المبصرة فقالوا فى الخفاش إن نور عينيه ضعيف ، وفى الأعمش انه ضعف نور بصره ، وفى الأعمى أنه فقد نورالبصر . . . فقد عرفت بهذا أن الروح الباصر سمى نورا ، وأنه لم سمى نورا ، وانه لم كان بهذا الاسم أولى وهذا هو الوضع الثانى وهو وضع الخواص » (٢) .

وبصر العين مع أنه من وسائل الإدراك إلا أنه به أنوا ع النقصان فإنه يبصر غيره ولا يبصر نفسه ، ولايبصر ما بَعُدَ منه ، ولايبصر ما هو وراء حجاب . ويبصر من الأشياء ظاهرها دون باطنها ، ويبصر من الموجودات بعضها دون كلها ، ويبصر أشياء متناهية ولايبصر مالانهايه ، ويغلط كثيرا فى إبصاره فيرى الكبير صغيرا والبعيد قريبا والساكن متحركا والمتحرك ساكنا فهذه سبع نقائص لاتفارق العين الظاهرة . (٣)

لكن فى قلب الإنسان « عينا » كاملة لايشوبها شىء من هذه النقائص وهى (العقل) أو (الروح) أو (النفس الانسانى) ، وإذا كانت العين أولى باسم النور من النور المعروف ، فإن العقل أولى باسم النور من العين الظاهرة لسموه عن نقائص العين فالعين لاتبصر نفسها ، ونور العقل يدرك غيره ويدرك صفات نفسه والعقل يدرك القريب والبعيد ، والعقل

(١) المشكاة صفحة ٤١ .

(٢) المشكاة ص ٤٢ وص ٤٣ .

(٣) المشكاة ص ٤٣ .

يدرك ماوراء حجب السموات والملأ الأعلى والملكوت الأسمى ، والعقل يدرك ظاهر الأشياء وباطنها وصورها وحقائقها ، ويتغلغل إلى بواطن الأشياء وأسرارها ويدرك حقائقها وأرواحها ويستنبط سببها وعلتها وغايتها وحكمتها ، والعقل يدرك العالم كله فالموجودات كلها مجال العقل ، والعقل يدرك المعلومات ، والمعلومات لايتصور أن تكون متناهية فإنه مثلا يدرك الأعداد ولانهاية لها ، بل يدرك تضعيفات الاثنين والثلاثة وسائر الأعداد ولايتصور لها نهاية، ويدرك أنواعا من النسب بين الأعداد لايتصور التناهي عليها بل يدرك علمه بالشيء وعلمه بعلم الشيء ، وعلمه بعلمه ، فقوته في هذا الواحد لاتقف عند نهاية (١)

وإن العين تبصر الكبير صغيرا ، فترى الشمس قرصا صغيرا ، والعقل يدرك أن الكواكب والشمس أكبر من الأرض أضعافا مضاعفة ؟

وغلط البصر كثير ، والعقل منزه عن هذه الأخطاء .

ومع أن العقل استحق عن كمالاته هذه اسم النور لكن هناك " مالا يقارن العقل في كل حال إذا عرض عليه بل يحتاج إلى أن يهز أعطافه بالتنبيه كالنظريات ، وانما ينبهه كلام الحكمة فعند إشراق نور الحكمة يصير العقل مبصرا بالفعل بعد أن كان مبصرا بالقوة وأعظم الحكمة كلام الله تعالى ومن جملة كلامه القرآن خاصة فتكون منزلة آيات القرآن عند عين العقل منزلة نور الشمس عند العين الظاهرة إذ به الابصار فبالحرى أن يسمى القرآن نورا كما يسمى نور الشمس نورا .

فمثال القرآن الشمس ومثال العقل نور العين .

وبهذا نفهم معنى قوله تعالى " فآمنوا بالله ورسوله والنور الذى أنزلنا " وقوله تعالى قد جاءكم برهان من ربكم وأنزلنا اليكم نورا مبينا (النساء : ١٧٤) .

ويتدرج الغزالي في تجريد النور حتى يصل بنا إلى نور من أنوار العالم العلوى عالم الملكوت الذى تعرج إليه نفوس الخلص من الدارجين السالكين عالم الغيب المشحون بالأنوار.

ويقول الغزالي « ولا تظن أنا نعني بالعالم العلوى السموات فإنها علو وفوق في حق

---

(١) المشكاة ص ٤٦ .

عالم الشهادة والحس ، ويشارك فى إدراكه البهائم .

وأما العبد فلا يفتح له باب الملكوت ولايصير ملكوتيا إلا ويبدل فى حقه الأرض غير الأرض والسموات فيصير كل داخل تحت الحس والخيار أرضه ومن جملة السموات ، وكل ماارتفع عن الحس فسماؤه .

وهذا هو المعراج الأول لكل سالك ابتدأ سفره إلى قرب الحضرة الربوبية فالانسان مردود إلى أسفل السافلين ، ومنه إلى العالم الأعلى

وأما الملائكة فإنهم جملة عالم الملكوت عاكفون فى حضرة القدوس ومنها يشرقون إلى العالم الأسفل . . . وعالم الشهادة أثر من ذلك العالم ، يجرى منه مجرى الظل بالإضافة إلى الشخص والسبب بالإضافة إلى السبب (١) .

والأنوار السماوية التى تقتبس منها الأنوار الأرضية مرتبة بحيث يقتبس بعضها من بعض ، ومرتبة من حيث قربها وبعدها من منبع النور الأول ويشبهه الإمام الغزالى بضوء القمر حينما يدخل فى كوة بيت ، فيقع على مرآة منصوبة على حائط فيمكن الضوء منها إلى حائط آخر فى مقابلتها ، وينعطف إلى الأرض فيضيئها فأنت تعلم أن ما على الأرض من نور تابع لما على الحائط ، وما على الحائط تابع لما على المرآة ، وما على المرآة تابع لما فى القمر ، وما فى القمر تابع لما فى الشمس : إذ منها يشرق النورعلى القمر ، وهذه الأنوار الأربعة مرتبة بعضها أعلى وأكمل من بعض ، ولكل واحد مقام معلوم ودرجة خاصة لا يتعداها (٢) .

والأنوار الملكوتية أيضا وجدت على ترتيب وأن المقرب هو الأقرب إلى النور المحض النور الأقصى منبع الأنوار جميعها وهم كثرة لهم ترتيبهم ومقاماتهم لدى واهب الأنوار الحق النور الأقصى الأعلى .

ومن هنا يتضح لنا أن إطلاق اسم النور على غير النور الأول مجاز محض فكل ماسواه من حيث ذاته لانور له لأن نوريته مستعارة من غيره ونسبة المستعار إلى المتسعير

---

(١) المشكاة ص ٤٩ ، ٥٠ باختصار .

(٢) المشكاة ص ٥٣ .

مجاز محض والنور الحق كما يقول الغزالى هو الذى بيده الخلق والأمر ، ومنه الإنارة أولا والإدامة ثانيا ، فالموجود الحق هو الله تعالى كما أن النور الحق هو الله تعالى ، وما « سوى الله » فهو فى ذاته عدم محض .

وهذه الحقيقة يراها العارفون عندما يتدرجون فى مدارجهم الروحية ، ويفهمون ذوقا معنى قول الله تعالى : « كل شىء هالك إلا وجهه » فهو مالك الملك فى الدنيا والآخرة .

ونداؤه فى عبيده ومخلوقاته يوم الفزع الأكبر ، « لمن الملك اليوم ؟ لله الواحد القهار » نداء لايفارق أسماع البشر فى هذه الدنيا فهو ليس قاصرا على يوم الفزع الأكبر وانما هو النداء الأبدى الخالد الذى نعنى أنه الوجود الحق كما أنه النور الحق وما سواه عدم محض.

والإمام الغزالى حين يقول إن العارفين يعرفون أن الوجود الحق هو الله تعالى فى حال تجربتهم الصوفية وفى حال وجودهم وفنائهم يشعرون بوحدة لايرون إلا الوجود الحق الله تعالى وهذه وحدة شهود لا وحدة وجود كما حاول البعض ان يتهم الغزالى بأنه ممن بذروا فكرة وحدة الوجود فى الفكر الإسلامى فى كتابه المشكاة ، الحقيقة إن الرجل يريد أن يقول أنه لاموجود على الحقيقة إلا الله ، وأن وجود الكون ما هو إلا كانعكاس ضوء القمر على صفحة المرايا المختلفة فالكون لاوجود له إلا كانعكاس وجود الحق فيه .

وكما نعلم أن الغزالى ينكر تماما وجود مادة قديمة للعالم ويفند هذه المزاعم ويؤكد على أن العالم مخلوق حادث من عدم .

وحال « وحدة الشهود » خاطفة سريعة فتنتهى بسرعة كلمح البصر بعدها يصحو العارف ويعود إلى سلطان عقله وكلام العشاق فى حال السكر يطوى ولايحكى .

فلما خف عنهم سكرهم وردوا إلى سلطان العقل الذى هو ميزان الله فى أرضه ، عرفوا أن ذلك لم يكن حقيقة الاتحاد بل شبه الاتحاد مثل قول العاشق فى حال فرط عشقه « أنا من أهوى ومن أهوى أنا » ولا يبعد أن يفاجىء الإنسان مرآة فينظر منها ولم ير المرآة قط ، فيظن أن الصورة التى رآها بصورة المرآة متحدة بها ، ويرى الخمر فى الزجاج فيظن أن الخمر لون الزجاج ، وإذا صار ذلك عنده مألوفا ورسخ فيه قدمه استغفر وقال :

رَقّ الزجاج وراقت الخـــمرُ   فتشابها فتشاكلَ الأمــرُ

فكأنما خمـرٌ ولاقـدحٌ وكأنمـا قـدحٌ ولاخمـرُ

وفرق بين أن يقول : الخمر قدح ، وبين أن يقول : كأنه قدح ، وهذه الحالة إذا غلبت سميت بالإضافة إلى صاحب الحالة (فناء) ، بل « فناء الفناء » : لأنه فنى عن نفسه وفنى عن فنائه ، فإنه ليس يشعر بنفسه فى تلك الحال ولا بعدم شعوره بنفسه ، ولو شعر بعدم شعوره بنفسه لكان قد شعر بنفسه ، وتسمى هذه الحالة بالإضافة إلى المستغرق به بلسان المجاز اتحادا أو بلسان الحقيقة توحيدا (١) .

وهكذا نستطيع أن نقول مطمئنين إن الغزالى لم يقل بوحدة الوجود ولم ينكر أن الحق هو الخلق وأنهما وجهان لحقيقة واحدة ولا فرق بينهما إلا بالاعتبار ولكنه قال إن الله تعالى هو الوجود الحق وما سواه فهو فى ذاته عدم محض .

وإن توحيد العوام هو قول « لا إله إلا الله » وأن توحيد الخواص « لا إله إلا هو » هو كل مايشار إليه ، ولهذا فإن توحيد الخواص – كما يقول الغزالى – أتم وأخص وأشمل وأحق وأدق وأدخل بصاحبه فى الفردانية المحضة والوحدانية الصرفة ، ومنتهى معراج الخلائق مملكة الفردانية .

والفصل الثانى من رسالة المشكاة موضوعه بيان مثال المشكاة والمصباح والزجاجة والشجرة والزيت والنار . ويقدم لذلك كله بمقدمة يبين من خلالها سر التمثيل ومنهاجه وكيفية الموازنة بين عالم الشهادة وعالم الملكوت . ثم يتحدث عن طبقات أرواح الطينة البشرية . فالرموز المذكورة " المشكاة " أو " المصباح " . . . ماهى إلا رموز للأرواح البشرية فى رأى الغزالى .

وعن سر التمثيل ومنهاجه يقول الغزالى " اعلم أن العالم الملكوتى عالم غيب إذ هو غائب عن الأكثرين ، والعالم الحسى عالم الشهادة إذ يشهده الكافة . والعالم الحسى مرقاة إلى العقلى . فلو لم يكن بينهما اتصال ومناسبة لانسد طريق الترقى إليه . ولو تعذر ذلك لتعذر السفر إلى حضرة الربوبية والقرب من الله تعالى " (٢)

---

(١) المشكاة ص ٥٧ ، وص ٥٨ .

(٢) المشكاة صفحة ٧٠ .

وهذا النص القصير يبين لنا أن الغزالي يريد أن يقول أن الأشياء فى عالم الشهادة لها «مثال» أو رمز فى عالم الملكوت وأن عالم الشهادة مدرج من المدارج إلى عالم الغيب . وإن الله سبحانه وتعالى هو الذى لا يماثله شيء لأنه لامثال له .

" . . . . وإن كان لا يوجد للصورة إلا نسبة نوع ترتيب على هذه الشاكلة فهى على صورة الرحمن . وفرق بين أن يقال " على صورة الرحمن " وبين أن يقال على صورة الله " لأن الرحمة الإلهية هى التى صورت الحضرة الإلهية بهذه الصورة . ثم أنعم على آدم فأعطاه صورة مختصرة جامعة لجميع أصناف ما فى العالم حتى كأنه كل ما فى العالم أو هو نسخة من العالم مختصرة .

وصورة آدم – أعنى هذه الصورة – مكتوبة بخط الله ، فهو الخط الإلهى الذى ليس برقم و حروف ، إذ تنزه خطه عن أن يكون رقما وحروفا كما تنزه كلامه عن أن يكون صوتا وحرفا ، وقلمه عن أن يكون خشبا وقصبا ، ويده عن أن تكون لحما وعظما . ولولا هذه الرحمة لعجز الآدمى عن معرفة ربه إذ لا يعرف ربه إلا من عرف نفسه . فلما كان هذا من آثار الإلهية غير حضرة الرحمة وغير حضرة الملك وغير حضرة الربوبية . ولذلك أمر بالعياذ بجميع هذه الحضرات فقال :" قل أعوذ برب الناس ، ملك الناس ، إله الناس " ولولا هذا المعنى لكان ينبغى أن يقول على صورته « واللفظ الوارد فى الحديث الصحيح » على صورة الرحمن »(١) ويستخدم الغزالى منهجا خاصا فى التأويل وضرب الأمثلة وهذا المنهج بعيد كل البعد عن مناهج الباطنية فهو ليس باطنيا ينكر الظاهر وليس حشويا ينكر أسرار الباطن ولكنه يجمع بين منهجى الظاهر والباطن فى سائر تأويلاته فهو كما يقول « فالذى يجرد الظاهر حشوى ، والذى يجرد الباطن باطنى والذى يجمع بينهما كامل » (٢)

ولهذا فإننا وجدنا الغزالى يبين لنا منهجه من خلال القائه الضوء على مجموعة من الأمثال الموجودة فى القرآن الكريم « فالطور » مثال لكل ماهو ثابت لايتغير وعظيم

---

(١) المشكاة . . صفحة ٧١ .

(٢) المشكاة . . صفحة ٧٣ .

لايستصغر ، ومنه ينفجر إلى أودية القلوب البشرية مياه المعارف ونفائس المكاشفات (١) ، " والوادى " مثال للموجودات التى تتلقى تلك النفائس العلوية ومنها تنسال إلى قلوب البشر . . وهكذا يستخدم منهجه التؤيلى البعيد عن مناهج الباطنية والظاهرية وإنما يؤول القرآن بمنهج ذوقى وكشفى بديع .

والغزالى يدافع عن نفسه من اتهامه بفرية كاذبة فيقول « لاتظن من هذا الأنموذج وطريق ضرب المثال رخصة منى فى رفع الظواهر واعتقادا فى إبطالها حتى أقول مثلا لم يكن مع موسى نعلان ، ولم يسمع الخطاب بقوله « اخلع نعليك » حاش لله ، فإن إبطال الظواهر رأى الباطنية الذين نظروا بالعين العوراء إلى أحد العالمين ولم يفهموا وجهه ، كما ان إبطال الأسرار مذهب الحشوية » (٢) .

وبعد ذلك يتناول الغزالى جزئية جديدة فى هذا الموضوع وهى مراتب الأرواح البشرية النوارنية إذ بمعرفتها تعرف أمثلة القرآن الكريم ويقسمها الغزالى إلى خمس مراتب هى : الروح الحساس ، والروح الخيالى ، والروح العقلى ، والروح الفكرى ، والروح القدسى النبوى، والروح الحساس هو الذى يتلقى مدركات الحواس الخمس وهو موجود فى الصبى والبالغ وهو من أصل الروح الحيوانى وأوله .

والثانى الروح الخيالى وهو الروح الحافظ المثبت لما أوردته الحواس ويحفظه مخزونا عنده ليعرضه على الروح العقلى الذى قوته عند الحاجة إليه . وهذا لايوجد للرضيع ويوجد له بعد ذلك ، وقد يوجد لدى بعض الحيوانات دون الأخرى ، فالكلب إذا ضرب مرة بخشبة ، فإذا رأى الخشبة بعد ذلك من بعد هرب .

والثالث الروح العقلى الذى به تدرك المعانى الخارجة عن الحس والخيال ومدركاته المعارف الضرورية الكلية ولهذا فهو الجوهر الإنسى الخاص فلا يوجد عندالبهائم ولا عند الصبيان .

والرابع الروح الفكرى وهو الذى يأخذ العلوم العقلية المحضة فيوقع بينها تأليفات

---

(١) المشكاة . . صفحة ٦٩ .

(٢) المشكاة . . صفحة ٧٣ .

وازدواجات ويستنتج منها معارف شريفة ، ثم إذا استفاد نتيجتين مثلا ، ألف بينهما مرة أخرى واستفاد نتيجة أخرى ، ولا يزال يتزايد كذلك إلى غير نهاية .

والخامس الروح القدسي النبوى الذى يخص به الأنبياء وبعض الأولياء وفيه تتجلى لوائح الغيب وأحكام الآخرة وجملة من معارف ملكوت السموات والأرض ، بل من المعارف الربانية التى يقصر دونها الروح العقلى والفكرى وإليه الإشارة بقوله تعلى « وكذلك أوحينا إليك روحا من أمرنا ماكنت تدرى ماالكتاب ولا الإيمان ولكن جعلناه نورا نهدى به » – [الشورى : ٥٢]

. . فإذا عرفت هذه الأرواح الخمسة فاعلم أنها بجملتها أنوار لأنها تظهر أصناف الموجودات ، والحسّى والخيالى منها ، وإن كان يشارك البهائم فى جنسها ، لكن الذى للإنسانية منه نمط آخر أشرف وأعلى وخلق الانسان لأجل غرض أجل وأسمى

أما الحيوانات فلم يخلق ذلك لها إلا ليكون آلتها فى طلب غذائها فى تسخيرها للآدمى . ، وانما خلق للآدمى ليكون شبكة له يقتنص بها من العالم الأسفل مبادىء المعارف الدينية الشريفة ، إذ الإنسان إذا أدرك بالحس شخصا معينا اقتبس عقله منه معنى عاما مطلقا (١) .

وهذه الأرواح الخمسة فى موازنة للمشكاة والزجاجة والمصباح والشجرة والزيت ، فالروح الحساس فى موازاة المشكاة لأن أنواره خارجة من عدة ثقوب الحواس كالعينين والأذنين والمنخرين وغيرها أى كما ينفذ النور من المشكاة ، والروح الخيالى يوازى الزجاجة لأنها من أصل كثيف بيد أن كلا منهما قابل للترقيق والتصفية والتهذيب ، وكما تضبط الزجاجة نور المصباح حتى لايحجب نوره وتحفظه عن الانطفاء بالرياح العاصفة ، كذلك فإن الخيال يضبط المعارف العقلية حتى لا تضطرب ولا تنتشر انتشارا يخرج عن الضبط .

والروح العقلى يوازى المصباح فبالروح العقلى يمكننا إدراك المعارف الإلهية الشريفة تماما كالمصباح الذى يمثل نوره النور الحسّى .

---

(١) المشكاة ص ٧٧ – ٧٩ .

والروح الفكرى يوازى الشجرة لأن الفكر بمثابة الشجرة ذات الفروع والأغصان الكثيرة تزدهر كلها من جذر واحد وأصل واحد تماما كالجذر من الشجرة ولأن شجرة الزيتون بالذات زيتها أخلص وأنقى الزيوت وأرقها وأصفاها ، ويختص زيتها بخاصية زيادة الإشراق فشجرة الزيتون توازى الروح الفكرى ، وهى شجرة مباركة لأنها كثيرة الثمر ، ولأن شعب الأفكار العقلية المحضة خارجة عن قبول الإضافة إلى الجهات ولهذا فهى لاشرقية ولاغربية .

كذلك فإن الروح القدسى النبوى يوازى الزيت النقى الصافى الذى بلغ من النقاء والصفاء حدا يجعله يضىء ولو لم تَمْسَسْهُ نار .

إذ من الأولياء من يكاد يشرق نوره حتى يكاد يستغنى عن مدد الأنبياء ، وفى الأنبياء من يكاد يستغنى عن مدد الملائكة .

وإذا كانت هذه الأنوار مرتبة بعضها على بعض : فالحِسّى هو الأول ، وهو كالتوطئة والتمهيد للخيالى ، إذ لا يتصور الخيالى إلا موضوعا بعده ، والفكرى والعقلى يكونان بعدهما ، فبالحرى أن تكون الزجاجة كالمحل للمصباح ، والمشكاة كالمحل للزجاجة : فيكون المصباح فى زجاجة ، والزجاجة فى مشكاة .

وإذا كانت هذه كلها أنوارا بعضها فوق بعض فبالحرى أن تكون نورا على نور(١) .

ويظهر نور الله تعالى فى الإنسان واضحا جليا فى جميع مراتبه ، فهو الموجود الوحيد الذى حق الله أن يكون خليفة الله فى أرضه وهو المخلوق الوحيد الذى خلقه الرحمن تعالى على صورته .

وبعد ذلك يحاول الغزالى أن يستخدم منهجه التأويلى الذوقى الفريد فى تفسيره لبعض آيات سورة النور المباركة ، وتكاد الأنفاس تتوقف وهى تتابع التأويل الكشفى الشفيف الذى يقدمه لنا الغزالى ، وهو عندى قمة فى الجمال والشفافية الروحية العظيمة .. استمع اليه وهو يقول فى نص زائد فى الروعة والجمال :

هذا المثال إنما يتضح لقلوب المؤمنين أو لقلوب الأنبياء والأولياء لا قلوب الكفار : فإن

(١) المشكاة ٨١ .

النور يراد للهداية ، فالمصروف عن طريق الهدى باطل وظلمة ، بل اشد من الظلمة : – لأن الظلمة لاتهدى الى الباطن ، كما لا تهدى الى الحق وعقول الكفار انتكست ، وكذلك سائر إدراكاتهم وتعاونت على الإضلال فى حقهم فمثالهم كرجل (فى بحر لجى يغشاه موج من فوقه موج من فوقه سحاب ظلمات بعضها فوق بعض) (النور : ٤٠) .

يقول الإمام الغزالى « البحر واللجى هو الدنيا بما فيها من الأخطار المهلكة والأشغال المردية والكدورات المعمية ، والموج الأول موج الشهوات الداعية إلى الصفات البهيمية والاشتغال باللذات الحسية وقضاء الأوطار الدنيوية حتى إنهم يأكلون ويتمتعون كما تأكل الأنعام ، وبالحرى أن يكون هذا الموج مظلما لأن حب الشىء يعمى ويصم .

والموج الثانى من الصفات السبعية الباعثة على الغضب والعداوة والبغضاء والحقد والحسد والمباهاة والتفاخر والتكاثر .

وبالحرى أن يكون مظلما لأن الغضب غول العقل ، وبالحرى أن يكون هو الموج الأعلى لأن الغضب فى الأكثرمسئول عن الشهوات حتى إذا هاج أذهل عن الشهوات وأغفل عن اللذات المشتهاه . وأما الشهوة فلا تقاوم الغضب الهائج أصلا .

وأما السحاب فهو الاعتقادات الخبيثة ، والظنون الكاذبة ، والخيالات الفاسدة التى صارت حجبا بين الكافرين وبين الإيمان ومعرفة الحق والاستضاءة بنور شمس القرآن والعقل : فإن خاصية السحاب أن يحجب إشراق نور الشمس . (١)

وهذا النص الغزالى المشرق بالكلمات الصادقة الروحانية الشفيفة يبين لنا بصدق كيف صور لنا حجة الإسلام الظلمة فى مقابل النور إننا نكاد نرى كل شىء من خلال الظلمة نكاد نلمس البحر اللجى العميق الذى لاساحل له ، نلمسه بحواس البصيرة ، وهذه الظلمات يجليها لنا الغزالى حتى نتعقبها ، ظلمات حب الدنيا وأكدارها ، وأمواج الشهوات البهيمية والحسية ونوازع النفس الدنية من غضب وحقد وحسد وعداوة وبغضاء وتكبر وحب للمال والولد .

---

(١) المشكاة : ٨٢ ، ٨٣ .

يقول الغزالى « وإذا كانت هذه كلها مظلمة فبالحرى أن تكون ظلمات بعضها فوق بعض وإذا كانت هذه الظلمات تحجب عن معرفة الأشياء القريبة فضلا عن البعيدة ، ولذلك حجب الكفار عن معرفة عجائب أحوال النبى ﷺ مع قرب متناوله وظهوره بأدنى تأمل ، فبالحرى أن يعبر عنه بأنه لو أخرج يده لم يكد يراها » .

وإذا كان منبع الأنوار كلها من النور الأول الحق ، فبالحرى أن يعتقد كل موحد ان (من لم يجعل الله له نورا فما له من نور) (النور : ٤٠) . فيكفيك هذا القدر من أسرار هذه الاية فاقنع به . (١) .

وهذا فيض ربانى عظيم أتاه الله حجة الإسلام فأنار له الطريق فعرف معنى نور الحق وابعده عن ظلمات النفس المستغرقة فى بحر عميق كله ظلمات بعضها فوق بعض .

ونجد فى هذه الرسالة بصمات مذهب الإشراق وحكمة المشارقة الذوقية التى تعتمد فى حكمتها على البرهان والاستنباط .

كذلك استطاع أن يفرق بين عالم النور وعالم الظلمة ولكن الغزالى (٢) لم يبّن على هذه التفرقة مذهبا ثنويا فى طبيعة الوجود كما بنى ثنوية الفرس ، بل على العكس نقض مذهبهم فى المشكاة وغيرها ، واعتبرهم من جملة المحجوبين ، ولعله ومن سبقه من كبار متصوفة الإسلام كانوا أكثر تأثرا فيما قالوه عن النور والإدراك الذوقى المنبعث من العالم النورانى بالأفلاطونية الحديثة التى وردت إليهم ملخصة فى كتاب الربوبية المنسوب خطأ إلى أرسطو .

والفصل الثالث فى المشكاة يدور حول معنى قوله ﷺ إن لله سبعين حجابا من نور وظلمة لو كشفها لأحرقت سبحات وجهه كل من أدركه بصره " ، وفى بعض الروايات سبعمائة وفى بعضها سبعين ألفا .

ويؤكد الغزالى أن المحجوبين من خلق الله ثلاثة أقسام : منهم من حجب بمجرد

---

(١) المشكاة ... ص ٨٣ .

(٢) المشكاة ... تصدير الدكتور أبو العلا عفيفى ص ٣٤ .

الظلمة ، ومنهم من حجب بالنور المحض ، ومنهم من حجب بنور مقرون بظلمة .

والقسم الأول :

المحجوبون بمحض الظلمة وهم الملاحدة الذين كفروا بالله تعالى ورسله وهؤلاء عند الغزالى صنفان (١) : صنف تشوف إلى طلب سبب لهذا العالم فأحاله إلى الطبع . والطبع عبارة عن صفة مركوزة فى الأجسام حالة فيها وهى مظلمة إذ ليس لها معرفة وإدراك ولا خبر لها من نفسها ولا مما يصدر منها وليس لها نور يدرك بالبصر الظاهر أيضا والصنف الثانى : هم الذين شغلوا بأنفسهم ولم يفرغوا لطلب السبب أيضا ، بل عاشوا عيش البهائم، فكان حجابهم نفوسهم الكدرة ، وشهواتهم المظلمة ، ولا ظلمة أشد من الهوى والنفس : ولذلك قال الله تعالى « أفرأيت من اتخذ إلهه هواه » [الجاثية : ٢٣] .

فهؤلاء عبيد اللذة ، يعبدونها ويطلبونها ... وأى ظلمة أشد من ذلك ؟ فقد حجب هؤلاء بمحض الظلمة .

وفرقة رأت أن غاية السعادات هى الغلبة والاستيلاء والقتل والسبى والأمر .. وهم محجوبون بظلمة الصفات السبعية .. وفرقة ثالثة رأت أن غاية السعادات كثرة المال واتساع اليسار .

وفرقة رابعة زعمت أن أعظم السعادات فى اتساع الجاه والصيت وانتشار الذكر .. ويدخل فى جملة هؤلاء جماعة يقولون بلسانهم « لا إله إلا الله » ، لكن ربما حملهم على ذلك خوف أو استظهار بالمسلمين وتجمل بهم أو استمداد من مالهم ، أو لأجل التعصب لنصرة مذهب الآباء فهؤلاء إذا لم تحملهم هذه الكلمة على العمل الصالح فلا تخرجهم الكلمة من الظلمات إلى النور ، « بل أولياؤهم الطاغوت يخرجونهم من النور إلى الظلمات » البقرة : ٢٥٦) أما من أثرت فيه الكلمة بحيث ساءته سيئته وسرته حسنته فهو خارج عن محض الظلمة وإن كان كثير المعصية .

ومن ذلك النص يتبين لنا أن القسم الأول وهم المحجوبون بالظلمة المحضة وهم

---

(١) المشكاة ص ٨٥ : ص ٨٧ باختصار .

الملاحدة الذين أنكروا الله والبعث والحساب والنبوة ، واعتبروا الإنسان مادة فقط وفسروا الكون تفسيرا ماديا محضا وقالوا (إن هى إلا حياتنا وما يهلكنا إلا الدهر) .

ومع الماديين الملاحدة يدخل فى دائرتهم أصحاب النفوس الكثيفة وأصحاب الملذات الذين يعيشون الحياة طولا وعرضا كالبهائم ، فهؤلاء أقصى غاياتهم ، وأهدافهم فى الحياة قضاء ملذاتهم ومتعهم الرخيصة .

كذلك يدخل فى دائرة هؤلاء المحجوبين بالظلمة المحضة أصحاب النزعات الوحشية ومحبى القتل والاستيلاء والغلبة والقهر وهؤلاء منزلتهم منزلة السباع والوحوش الضارية .

كذلك كـــل من رأى أن غاية الغايات المال والجاه والشهرة .. فكل هؤلاء نفوسهم مظلمة ، وكل هؤلاء محجوبون عن الله تعالي بمحض الظلمة .

والقسم الثانى :

هم المحجوبون بنور مقرون بظلمة وهم ثلاثة أصناف : صنف منشأ ظلمتهم من الحس ، وصنف منشأ ظلمتهم من الخيال ، وصنف منشأ ظلمتهم من مقايسات عقلية فاسدة والصنف الأول المحجوبون بنور مشوب بظلمة حسية وهم طوائف شتى أولهم عبدة الأوثان ، وأخرهم الثنوية ، فعبدة الأوثان عرفوا على العموم أن لهم ربا ولكن حجبتهم ظلمة الحس فصنعوا من المعادن النفيسة تماثيل اتخذوها آلهة ومنعهم من معرفة الله ظلمة الحس ذلك أن الحس ظلمة بالإضافة إلى العالم الروحانى العقلي .

والطائفة الثانية من المحجوبين بنور مشوب بظلمة طائفة اعتقدوا بأن لهم ربا وهو أجمل الأشياء .

فإذا رأوا إنسانا جميلا أو شجرا جميلا أو فرسا بديعا أو ما شابه ذلك سجدوا له وقالوا هذا هو ربنا ، فهؤلاء محجوبون بنور الجمال مع ظلمة الحس .

وطائفة ثالثة قالوا ينبغى أن يكون ربنا نورانيا في ذاته صاحب سلطان فى نفسه فعبدوا النار واتخذوها ربا ، وهم محجوبون بنور السلطنة والبهاء .

وطائفة رابعة عبدوا ما هو موصوف بالعلو والارتفاع وكان معروفا بينهم الاشتغال

بعلم النجوم وتأثيرات النجوم فى الحياة فعبدوا النجوم والكواكب ، فهؤلاء محجوبون بنور العلو والإشراق والاستيلاء ، وهم من أنوار الله تعالى .

وطائفة خامسة عبدوا الشمس وقالوا هى أكبر فهم محجوبون بنور الكبرياء مع بقية الأنوار مشوبا بظلمة الحس .

ويقول الغزالى « وهناك طائفة سادسة عبدوا النور المطلق الجامع لجميع أنوار العالم وزعموا أنه رب العالم والخيرات كلها منسوبة إليه . ثم رأوا فى العالم شرورا فلم يستحسنوا إضافتها إلى ربهم تنزيها له عن الشر ، فجعلوا بينه وبين الظلمة منازعة وأحالوا العالم إلى النور والظلمة وهم الثنوية » . (١)

والصنف الثانى المحجوبون ببعض الأنوار مشوبا بظلمة الخيال كالمجسمة . والكرامية الذين عبدوا الها متجسما جالسًا على العرش أو الذين يثبتون لله تعالى الجهة المخصوصة جهة الفوق فهم ينفون الجسمية لا الجهة المخصوصة بالفوقية .

ثم هناك صنف ثالث وهم المحجوبون بالأنوار الإلهية مقرونة بأدلة عقلية فاسدة وهم أصحاب الصفات أو الصفاتية الذين يثبتون لله صفات كالسمع والبصر والكلام ويقيسونها على صفاتهم الإنسانية وربما قال بعضهم كلامه صوت وحرف ككلامنا وبعضهم قال لا بل هو كحديث نفسنا ولا هو صوت ولا حرف ، فهم محجوبون بجملة من الأنوار مع ظلمة المقايسات العقلية .

والقسم الثالث :

المحجوبون بمحض الأنوار وهم أصناف منهم الفلاسفة الذين اجتنبوا تعريفه بصفات البشر ونزهوه عن هذه الصفات وعرفوه بأنه مقدس منزه عن معانى الصفات وأن أثره فى الكون واضح فهو « محرك السموات ومدبرها » .

وصنف آخر من هؤلاء المحجوبين ترقوا عن هذا الصنف وقالوا إن تحريك الأفلاك يكون عن طريق ملك يقوم بالفعل تعبدا وطاعة لله تعالى ولعلنا نجد فى رأى هؤلاء الفلاسفة

---

(١) المشكاة : ٨٩ .

تأثرا بأرسطو ومذهبه المركب بآراء أفلوطينية محدثة ، يقول الغزالى عن هذا الصنف والصنف الثالث ترقوا عن هؤلاء وقالوا : إن تحريك الأجسام بطريق المباشرة ينبغى أن يكون خدمة لرب العالمين وعبادة له وطاعة من عبد من عباده يسمى ملكا ، نسبته إلى الأنوار الإلهية المحضة نسبة القمر فى الأنوار المحسوسة ، فزعموا أن الرب هو المطاع من جهة هذا المحرك ، ويكون الرب تعالى محركا للكل بطريق الأمر لا بطريق المباشرة .. فهؤلاء الأصناف كلهم محجوبون بالأنوار المحضة (١) .

.. وبعد سرده لآراء المحجوبين من المشبهة من المتكلمين والفلاسفة المسلمين المتأثرين بأرسطو والأفلوطينية المحدثة ورفضه لآرائهم ومنها قولهم إن الله هو المحــــــرك عن طريق « عقل » محرك للأفلاك لأنه يرتضى رأى « الواصلين » وهو « المطاع » هو الأمر الإلهى القديم « لله الأمر من قبل ومن بعد » (الاله الخلق والأمر) (ومن آياته أن تقوم السماء والأرض بأمره) « إنما قولنا لشىء إذا أردناه أن نقول له كن فيكون » .

والآيات الشريفة السابقة تشير إلى أن أمر الله « المطاع » قديم قدم الله ، والأمر الإلهى ليس هو الله ، ولا هو غيره وعلى ما يقول الأشاعرة ان الله عالمٌ بعلم وقادر بقدرة ومتكلم بكلام ، ولكن علمه وقدرته وكلامه غير ذاته تعالى .

ولهذا فإن فكرة الغزالى وقوله « بالمطاع » هى فكرة جذورها أشعرية بالدرجة الأولى وتتصل اتصالا مباشرا برأيهم فى الكلام الإلهى وفى القرآن كلام الله تعالى ووحيه إلى نبيه ومصطفاه محمد ص ، ففكرته إسلامية أصلية .

والأمر الألهى « المطاع » قديم قدم الله تعالى لأنه من كلامه سبحانه وتعالى القديم .

ونسبة هذا المطاع إلى الله تعالى كنسبة الشمس إلى النور المحض .

ويقول الغزالى : إن هذا « المطاع » موصوف بصفة تنافى الوحدانية المحضة والكمال البالغ لسر لا يحتمل هذا الكتاب كشفه : وأن نسبة هذا (المطاع) نسبة الشمس فى الأنوار فتوجهوا من الذى يحرك السموات ومن الذى يحرك الجرم الأقصى ، ومن الذى

---

(١) مشكاة ص ٩١ .

أمر بتحريكها إلا الذى فطر السموات وفطر الجرم الأقصى وفطر الأمر بتحريكها ، فوصلوا إلى موجود منزه عن كل ما أدركه بصر من قبلهم ، فاحرقت سبحات وجهه الأول الأعلى جميع ما أدركه بصر الناظرين وبصيرتهم فإذ وجدوه مقدسا منزها عن جميع ما وصفناه من قبل (١) .

وينبغى أن يفهم جيدا قول الغزالى : إن هذا « المطاع » موصوف بصفة تنافى الوحدانية المحضة والكمال البالغ ذلك أن الوحدانية الخالصة لا تحتمل التعدد إذ لا تعدد فيها فالواحدانية من صفات الله تعالى وحده أما الأمر الإلهى « المطاع » فهو مبدأ التعدد فى الوجود .

ولهذا قال : إن « المطاع » موصوف بصفة تنافى الوحدانية المحضة وهنا نلاحظ أن الغزالى كان منزها لله تعالى وموحدا خالصا ولم يفهم بعض المفكرين فكرة المطاع عند الإمام الغزالى .. ولهذا يقول ابن طفيل فى رسالته حى بن يقظان : وقد توهم بعض المتأخرين لعله يقصد ابن رشد من كلام الغزالى الواقع فى آخر كتاب المشكاة أمرا عظيما أوقعه فى مهواة لا مخلص منها وهو قوله بعد أن ذكر أصناف المحجوبين بالأنوار ثم انتقاله إلى ذكر الواصلين أنهم وقفوا على أن هذا الموجود العظيم متصف بصفة تنافى الوحدانية المحضة . فأراد أن يلزمه من ذلك بأنه يعتقد أن الأول الحق سبحانه فى ذاته كثرة ما تعالى الله عما يقول الظالمون علوا كبيرا (٢) فالغزالى يقصد بالموجود العظيم المتصف بصفة تنافى الوحدانية المحضة يقصد به « المطاع » ولا يقصد به الله سبحانه وتعالى والمطاع مجلى من مجالى الحق ومن هنا نفهم أن الغزالى لا يتبنى ولا يعتنق نظرية الصدور عند الحكماء والأفلوطينيين المحدثين .

وقد كانت رسالة المشكاة رسالة كشفية ذوقية إشراقية رائعة تعد إرهاصة كبرى للفلسفة الإشراقية عند فلاسفة الإشراق الذين أتوا من بعده وخاصة الفيلسوف الإشراقى الكبير قطب الدين الشيرازى .

وكان الغزالى صادقا مخلصا حين قال فى ختام رسالته .. فهذا ما حضرنى فى

(١) المشكاة : ٩٢ .

(٢) حى بن يقظان لابن طفيل صفحة ٦٤ .

جواب هذه الأسئلة مع أن السؤال صادفني والفكر منقسم ، والخاطر متشعب ، والهم إلى غير هذا الفن منصرف .

ومقترحي عليه أن يسأل الله تعالى العفو عما طغى به القلم ، أو زلت به القدم فإن خوض غمرة الأسرار الإلهية خطير واستشفاف الأنوار الإلهية من وراء الحجب البشرية عسير غير يسير . (١)

٣ – كيمياء السعادة

- أصل هذا الكتاب بالفارسية (كيمياء السعادة والعلوم) (٢) والأصل الفارسي كبير يشابه إحياء علوم الدين ويقال إنه ترجم فيه كتاب الإحياء فالأصل الفارسي يتألف من أربعة أركان :

(الركن الأول) في العبادة وهو عشرة أصول : الأصل الأول اعتقاد أهل السنه والثاني طلب العلم ، والثالث الطهارة ، والرابع الصلاة . والخامس الزكاة ، والسادس الصيام، والسابع الحج ، والثامن تلاوة الـــقرآن ، والتاسع الأذكار والدعوات ، والعاشر ترتيب الأوراد .

(الركن الثاني) في آداب المعاملة وهو أيضا عشرة أصـــــول : الأول في آداب الطعام ، والثاني آداب النكاح ، والثالث آداب الكسب والتجارة ، والرابع طلب الحلال ، والخامس آداب الصحبة ، والسادس آداب العزلة ، والسابع آداب السفر ، والثامن آداب

---

(١) المشكاة صفحة ٩٣ .

(٢) ويشير الدكتور عبد الرحمن بدوي في كتابه « مؤلفات الغزالي » إلى أن النص الفارسي قد طبع في كلكتا بدون تاريخ .

وطبع في حجر في « لكهنو سنة ١٢٧٩ هـ ، سنه ١٢٨٢ هـ ، سنة ١٢٨٨ هـ ، سنة ١٢٩١ هـ . وفي بمباي سنة ١٨٨٣ م .

وقد ترجم النص الفارسي الى التركية مصطفى الواني المتوفى سنة ١٥٩١

وترجمه إلى الإنجليزية عن الترجمة التركية هـ . أ . هومس طبعة نيويورك ١٨٧٣ .

وقد ذكر المرتضى في اتحاف السادة المتقين إلى أنه يوجد الى جانب النص الفارسي الكبير ، نص عربي صغير في أربعة كراريس وعنده نسخه منه .

وقد طبع النص العربي ضمن مجموعة رسائل طبعها صبري الكردي ، القاهرة ســـنة ١٣٢٨ سنة ١٣٤٣ هـ .

السماع والوجد ، والتاسع آداب الامر بالمعروف والنهى عن المنكر ، والعاشر رعاية الرعية وتسيير الولاية .

(الركن الثالث) فى رؤية عقبات الطريق وهو أيضا عشرة أصول : الأول فى رياضة النفس ، والثانى علاج الشهوة ، الثالث فى شر الكلام وآفات اللسان ، والرابع فى الغضب والحقد والحسد ، والخامس علاج حب الدنيا ، والسادس علاج حب المال ، السابع علاج حب الجاه والحشمة ، والثامن علاج الرياء والنـفاق فى العبادة ، والتاسع علاج الكبر والعجب ، والعاشر علاج الغرور والغفلة .

(الركن الرابع) فى المنجيات ، وهو أيضا عشرة أصول : الأول فى التوبة والبعد عن المظالم ، والثانى فى الشكر والصبر ، والثالث فى الخـوف والرجاء ، والرابع فى الفقر والزهد ، والخامس فى التوحيد والتوكل ، والسادس فى محبة الحق .

ورسالة كيمياء السعادة توضح كيمياء السعادة الجوانية أو الباطنية والنفسيه التى تقابل الكيمياء المادية أو الظاهرية يقول الغزالى كيمياء السعادة لا تكون إلا فى خزائن الله سبحانه وتعالى ، ولا تلتمس إلا من حضرة النبوة وكل ما طلبها من غير هذا السبيل فقد أخطأ الطريق . ومن هنا كان لابد من يريد أن يظفر بهذه السعادة ، أن يتعرى من كل صفات النقص ويتزيا بكل صفات الكمال .

يقول الغزالى فى رسالة " كيمياء السعادة " اعلم أن سعادة كل شىء لذته وراحته ، ولذة كل شىء تكون بمقتضى طبعه ، وطبع كل شىء ما خلق له فلذة العين فى الصور الحسنة ، ولذة الأذن فى الأصوات الطيبة ، وكذلك سائر الجوارح بهذه الصفة ، ولذة القلب الخاصة بمعرفة الله سبحانه وتعالى ، لأنه مخلوق لها ، وكل ما لم يعرفه ابن آدم إذا عرفه فرح به ، مثل الشطرنج إذا عرفها فرح بها ، ولو يُنهى عنها لم يتركها ، ولا يبقى عنها صبر وكذلك إذا وقع فى معرفة الله سبحانه وتعالى فرح بها ولم يصبر عن المشاهدة لأن لذة القلب المعرفة ، وكلما كانت المعرفة أكبر كانت اللذة أكبر ، ولذلك فإن الإنسان إذا عرف الوزير فرح ، ولو عرف الملك لكان أعظم فرحا ، وليس موجود أشرف من الله سبحانه وتعالى لأن شرف كل موجود به ومنه ، وكل عجائب العالم أثر من آثار صنعته فلا معرفة أعز

من معرفته . ولا لذة أعظم من لذة معرفته وليس منظر أحسن من منظر حضرته ، وكل لذات وشهوات الدنيا متعلقة بالنفس وهى تبطل بالموت ولذة معرفة الربوبية متعلقة بالقلب ، فلا تبطل بالموت لأن القلب لا يهلك بالموت ، بل تكون لذته أكثر وضوءه أكبر ، لأنه خرج من الظلمة إلى الضوء .

وفى هذا النص نلاحظ أن الغزالى يلح على أمر هام وهو أن معرفة الله هى أعظم وأعز معرفة ، ومعرفته متعلقة بالقلب محل النور ، وفى هذا النص أيضا إشارة إلى المعرفة الصوفية عن طريق الزهد فى متاع الدنيا وشهوات النفس التي تبطل الموت أما المعرفة الأبدية فهى التى تتم عن طريق القلب لأن القلب لا يهلك بالموت .

والغزالى يرى أن عين القلب تستطيع معرفة الله ليس فقط فى حال الموت أو فى حال النوم وإنما أيضا تستطيع عين القلب أن تنفتح فى حال اليقظة وذلك عند من جاهد نفسه بالرياضة الروحية وتخلص من سائر الأخلاق المذمومة فإذا خلا العبد إلى نفسه ، وعطل طريق الحواس ، وفتح عين باطنه وسمعه ، ودأب على ذكر الله بقلبه لا بلسانه ، حتى يصبح ولا خير له من نفسه ولا من العالم ، ولا شىء يملك عليه باطنه غير مشاهدة الذات الإلهية فهناك عين القلب ، ويصبح الإنسان قادرا على أن يبصر فى اليقظة ما يبصره فى النوم ، وهناك يشاهد الحقائق العليا ، والمناظر الجميلة الجليلة التى لا يمكن شرحها ووصفها وينكشف له ملكوت السموات والأرض إذ أن حجاب القلب عن مطالعة ذلك العلام راجع إلى أنه لم يكن قد فرغ بعد من شغل الحواس والإشتغال بالعالم المادى ، والإقبال على ما فيه من لذات حسية لا تلبث أن تعرض له حتى تزول ، وكثيرا ما تعقب له آلاما .

هكذا يبين لنا الغزالى أن طريق السعادة الحقة طريق قلبى ذوقى يشعر فيه الإنسان (وإن الى ربك المنتهى) .

. وإن السعادة العظمى حين يفرغ الإنسان من الاشتغال بالمادة واللذات الحسية الزائلة وينشغل فى ذكر الله وعبادته ، وحين يتخلى عن الأخلاق المذمومة ويتحلى بالصفات المحمودة ، وحين يخلع عن قلبه الهوى والدنيا ويطهر نفسه من أدران الحقد والحسد والغل وسائر الأخلاق السيئة .. وقتها يشعر الإنسان بالسعادة الروحية الحقة الخالصة . لا

السعادة المادية الزائلة .

٤ - كتاب المضنون به على غير أهله : (١)

هذا الكتاب نسب خطأ للإمام الغزالى لأنه يحوى أفكار ومبادىء بعيدة كل البعد عن أفكار ومبادىء الغزالى .

فمادة الكتاب لا يعقل أن تصدر عن حجة الإسلام الإمام الغزالى فقد فند هذه الأفكار الغريبة عن فكره الإسلامى الصحيح فى العديد من كتبه ولا يصح منه أن يعتقد ما دحضه وفنده من قبل .

فمثلا : الإمام الغزالى الذى هاجم فى تهافت الفلاسفة فكرة تقدم العالم وأن القرآن صفة قديمة نجد فى الكتاب المنسوب إليه زورا يقول (٢) " الزمان لا يكون محدودا ، وخلق الزمان أمر محال ، فاليوم هو الكون الحادث فى اللغة ، وأيام الله حيث قال " وذكرهم بأيام الله " : مراتب مخلوقاته ومصنوعاته ومبدعاته من وجوه . منها قوله فى أربعة أيام يوم مادة السماء ويوم صورتها ويوم كواكبها ويوم نفوسها ، وقوله خلق الأرض فى يومين . المادة والصورة ومادة السماوات ومادة بروجها صورة واحدة ، ومادة الأرض مادة مشتركة بين أزواج وفحول وهى أخس لأنها مؤسسة تقبل كل ناكح .

وكما نعلم أن الغزالى رد على الفلاسفة والمتكلمين القائلين بقدم العالم فكيف يتناقض مع نفسه ويساير من كفرهم من قبل فى قولهم بقدم العالم .

وقد جانب الإمام الجليل ابن تيمية الصواب وأخطأ الرأى حين قال فى نقض المنطق : وأما المضنون به على غير أهله ، فقد كان طائفة أخرى من العلماء يكذبون ثبوته عنه ، وأما أهل الخبرة به وبحاله فيعلمون أن هذا كله كلامه ، لعلمهم بمواد كلامه ومشابهة بعضه بعضا . ولكن كان هو وأمثاله - كما قدمت - مضطربين لا يثبتون على قول ثابت ،

---

(١) طبع ضمن مجموعة بالقاهرة سنة ١٣٠٣ هـ ، سنه ١٣٠٩ هـ ، وبهامش « الإنسان الكامل » للجيلى سنة ١٣٢٨ بالقاهرة ، وسنة ١٣٦٨ هـ طبعة صبيح وشرح الكتاب عبد الله بن عبد المجيد العبيدى « ت سنة ٧٤٩هـ - ١٣٤٨ م » وطبع بالقاهرة سنة ١٩١٣ م .

(٢) المضنون به على غير أهله طبعة القاهرة ١٣٠٩ هـ (مصر المحروسة ص ٢ وما بعدها .

ولأن عندهم من الذكاء والطلب ما يتشوقون به إلى طريقة خاصة الخلق ، ولم يقدر لهم سلوك طريقة خاصة هذه الأمة الذين ورثوا عن الرسول ﷺ العلم والإيمان ، وهم أهل حقائق الإيمان والقرآن .. وبهذا كان الشيخ أبو عمرو ابن الصلاح يقول - فيما رأيته بخطه - : أبو حامد كَثُرَ القول فيه ومنه . فأما هذه الكتب - يعنى المخالفة للحق - لا يلتفت إليها ، وأما الرجل فيسكت عنه ويفوض أمره إلى الله (١) .

لقد كان ابن تيمية مُتَحاملاً على الغزالى أكثر من اللازم حين ذكر أن أهل الخبرة به وبحاله يعلمون أن هذا كله كلامه لعلمهم بمواد كلامه ومشابهة بعضه بعضا .

والحقيقة أن هذا الكتاب لا يمثل روح الغزالى ولا أسلوبه ، ولا فكره ولا مبادىء حجة الإسلام . فكل ما فيه أنكره الغزالى فى كتبه إنكارا تاما فكيف يعتنق ما يكفره . ويناقض ما كتبه فى " التهافت " " والمقاصد " .

كذلك نجد أن كتاب " المضنون " يحتوى على أن " القرآن صفة قديمة لا مثل له " ويقرر " نفى الصفات " فيقول الكتاب المنسوب خطأ " فصل : يتخيل بعض كثرة فى ذات الله تعالى عن طريق تعدد الصفات ، وقد صح قول من قال فى الصفات : " لا هو ولا غيره ؛ وقد توهم التغير ، ولا تغاير فى الصفات . ومثال ذلك أن الإنسان يعلم القرطاس ، وهذه صفة واحدة ، وكمالها أن يكون المعلوم تبعا لها ، فإنه إذا حصل العلم بتلك الكتابة ظهرت الصورة على القرطاس ، وهذه صفة واحدة ، وكمالها أن يكون المعلوم تبعا لها ، فإنه إذا حصل العلم بتلك الصفة من حيث أن المعلوم انكشف بها يقال لها علم ، ومن حيث أن الألفاظ تدل عليها يقال كلام ، فإن الكلام عبارة عن مدلول العبارات . ومن حيث أن وجود المعلوم تبعا لها يقال لها القدرة ، ولا تغاير ها هنا بين العلم والقدرة والكلام .

فإن هذه صفة واحدة فى نفسها ، ولا تكون هذه الاعتبارات الثلاث واحدة (٢) .

وأما رؤية الله فنجد أن الكتاب يقرر ورود الاذن اطلاق ذلك فإن رسول الله ص قال : رأيت ربى فى أحسن صورة . وهذا مما ورد فى الأخبار أن الله خلق آدم على صورته (٣)

---

(١) نقض المنطق لابن تيمية طبعة القاهرة ، ١٣٧ هـ / ١٩١٥ م صفحة ٥٥ .

(٢) ، (٣) المضنون ص ٥ ، ص٦ ، ص١٦ .

ومن ذلك كله يتضح لنا أن كتاب المضمون به على غير أهله ليس للإمام الغزالى .

فالغزالـــي صاحب " تهافت الفلاســـفة " ، "ومقاصد الفلاسفة " ، " وفضائح الباطنية " ،والمنقذ من الضلال " ، " وإحياء علوم الدين " ، " والأربعين فى أصول الدين " ، " ومناهج العابدين إلى جنه رب العالمين " ، ... والغزالى " حجة الإسلام " لا يمكن أن يقول بعملية الخلق من عدم وأن الزمان قديم ، ويؤيد مذهب الصدور الفيضى . وكيف ينفى الصفات وهو الذى نقد الفلاسفة والمتكلمين والباطنية فى هذه الأقوال وبين تهافتهم وأخطاءهم العقدية والفلسفية فى قولهم بأن الله يعلم الكليات ولا يعلم الجزئيات ، وقولهم إن العالم قديم ، وقولهم بجسدية العالم الآخر .

ولا شك عندنا أن هذا الكتاب مدسوس على الإمام الغزالى رضى الله عنه يقول السبكى فى طبقات الشافعية (١) " المضنون به على غير أهله " معاذ الله أن يكون له لأنه اشتمل على التصريح بقدم العالم ، ونفى العلم القديم بالجزئيات ، ونفى الصفات ، وكل واحدة من هذه يكفر الغزالى قائلها وأهل السنه أجمعون فكيف يتصور أنه يقولها ؟ وهو عندى وفى المسامرة أنه من تأليف على بن السبيتى وكذلك صرح صاحب " تحفة الإرشاد " بانه موضوع عليه ، وقد صنف أبو بكر محمد بن عبد الله المالقى كتابا فى رده وتوفى سنه خمسين وسبعمائة " .

لقد كان للغزالى اعداء أرادوا به سوءا فدسوا عليه ما يكره ونسبوا إليه أفكاراً هاجمها من قبل هجوما عنيفا وبين خطأهم وكشف عن ضلالها يقول الأستاذ الدكتور أحمد فريد الرفاعى (٢) كم دست كتب ووضعت على غير أصحابها . لمحاربتهم والتشهير بهم ، كما فعلوا فى حق أبى بكر الرازى ، إذ زوروا عليه كتابا فى تكذيب الاعتقاد بالأولياء ، وقد حدث مثل هذا فى حق الشعرانى إذ تناول أحد خصومه كتابه " البحر المورود " فحذف منه فصولا ووضع بدلها ما تشتم منه ريح الكفر ، ثم نشره منسوبا إلى الشعرانى ، باعتباره كتابه الحقيقى ، فاضطر الشعرانى فى سبيل الدفاع عن نفسه أمام علماء القاهرة ، أن

---

(١) طبقات الشافعية للسبكى جـ ٤ ص ١٣١ .

(٢) كتاب الغزالى للدكتور الرفاعى جـ ٢ صفحة ٢١٣ .

يبرز النسخة الأصلية التى لديه من كتابه ، والتى تحوى تواقيعهم ، وقد حدث هذا أيضا فى حق ابن عربى ، وتصدى الشعرانى للدفاع عنه ، وكان بعض خصومه قد دسَّ عليه فى كتابه " الفتوحات " ما يدل على الكفر ، وقد قاسى الإمام فخـــر الدين الرازى شيئا من هذا القبيل ، وقد تعددت هذه الدسائس على كتب المؤلفين بفعْلِ خصومهم والناقمين عليهم ، حتى وضع على بن محمد المصرى قائمة باسمائهم . وإذا كان الأمر كذلك ، فلا ينبغى أن نعجب من وقوع هذا فى حق الغزالى أيضا ، وقد أكد المستشرف المجرى " جولد زيهر " أن ذلك وقع بالفعل .

واعتقد الآن أننا بعد هذه هذه النظرة الشاملة نستطيع أن ننتهى إلى نتيجة مناسبة وهى أنه وضح لنا بلا أدنى شك أن " المضنون به على غير أهله " نُسب خطأ وزورا إلى الإمام الغزالى وأنه ليس من كتبه ولا من تأليفه .

« المبحث الثانى »

مشكلة المعرفة اليقينية عند الغزالى

أولا : منهج الشك عند الغزالى

١ – البحث عن الحق واليقين :

الحقيقة أن البحث عن الحق كان ديدن الغزالى منذ عنفوان شبابه ، وقبل بلوغه العشرين .

فقد تميز الغزالى بعقلية ناقدة فذة تستطيع ان تحلل الأشياء تحليلا منطقيا ليصل من المقدمات إلى نتائج صائبة .. يقول فى منقذه من الضلال « إن اختلاف الخلق فى الأديان والملل ، ثم اختلاف الأئمة فى المذاهب ، بحر عميق غرق فيه الأكثرون ، وما نجا منه إلا الأقلون . ولم أزل فى عنفوان شبابى – منذ راهقت البلوغ – أقتحم لجة هذا البحر العميق وأخوض غمراته خوض الجسور لا خوض الجبان الحذور ، وأتوغل فى كل مظلمة ، وأتهجم على كل مشكلة ، وأتقحم كل ورطة ، واتفحص عن عقيدة كل فرقة ، وأستكشف أسرار مذهب كل طائفة ، لأميز بين محق ومبطل ، ومتسنن ومبتدع ، لا أغادر باطنيا إلا وأحب أن أطلع على بطانته ، ولا ظاهريا إلا وأريد أن أعلم حاصل ظهَارته ، ولا فلسفيا إلا وأقصد الوقوف على كنه فلسفته ، ولا متكلما إلا وأجتهد فى الاطلاع على غاية كلامه ومجادلته ولا صوفيا إلا وأحرص على العثور على سر صفوته ، ولا متعبدا إلا وأترصد ما يرجع إليه حاصل عبادته ، ولا زنديقا معطلا إلا وأتجسس وراءه للتنبه لأسباب جرأته فى تعطيله وزندقته .

وقد كان التعطش إلى درك حقائق الأمور دأبى وديدنى ، من أول أمرى وريعان عمرى غريزة وفطرة من الله وضعتا فى جبلتى ، لا باختيارى وحيلتى ، حتى انحلت عنى رابطة

التقليد ، وانكسرت على العقائد الموروثة على قرب عهد بسن الصبى (١) .

ولا شك عندنا أن الغزالى كان يحاول البحث عن الحقيقة بكل المدارك والمعارف الحسية والعقلية والقلبية . ولأنه عقلية من طراز فريد للغاية فإنه كان يريد المعرفة الحقيقية والعلم الصحيح بحقائق الأمور . ويقول في ذلك إنما مطلوبى العلم بحقائق الأمور ، فلابد من طلب حقيقة العلم ما هى ؟ فظهر لى أن العلم اليقينى هو الذى ينكشف فيه المعلوم انكشافا لا يبقى معه ريب ، ولا يقارنه إمكان الغلط والوهم ، ولا يتسع القلب لتقدير ذلك ، بل الأمان من الخطأ ينبغى أن يكون مقارنا لليقين مقارنة لو تحدى بإظهار بطلانه مثلا من يقلب الحجر ذهبا والعصا ثعبانا ، لم يورث ذلك شكا وإنكاراً ... ثم علمت أن كل ما لا أعلمه على هذا الوجه ولا أتيقنه هذا النوع من اليقين ، فهو علم لا ثقة به ولا أمان معه ، وكل علم لا أمان معه فليس بعلم يقيني (٢) .

إنه يريد العلم الذى يحدث معه الأمان النفسى والعقلى والقلبى ، العلم الذى لا يورث الشك والإنكار بل الطمأنينة والإستقرار .

وكى يصل إلى الحق ويطمئن إلى معرفته كان لابد من أن يستخدم منهج الشك ليصل إلي الحقيقة والأمان .

ولقد كان الغزالى يعيش فى عصر يموج بالفرق والفتن مما ساعده على بزوغ الشك المنهجى عنده فهناك فرق متعددة كل فرقة منها ترى أنها على الحق وأنها الناجية وان منهجها هو الذى يؤدى بالإنسان إلى الأمان والطمأنينة .

لكن ما هى وسيلة الإدراك والمعرفة هل يمكننا بالحس أن نصل إلى معرفة حقة يقينية لا شك بعدها . هل يمكن للعقل أن يصل بالإنسان إلى بر الأمان أم أن هناك وسائل أخرى للمعرفة الحقة اليقينية .

وأما المحسوسات يقول الغزالى حين اختبرها " اقبلت بجد بليغ أتامل فى المحسوسات والضروريات ، وأنظر هل يمكننى أن أشكك نفسي فيها ، فانتهى بى طول

---

(١) المنقذ من الضلال للغزالى صفحة ٦٦ .

(٢) المنقذ من الضلال للغزالى صفحة ٦٩ .

التشكيك إلى أن نَفْسِي لم تسمح بتسليم الأمان فى المحسوسات ، وأخذ يتسع هذا الشك فيها ويقول : من أين الثقة بالمحسوسات وأقواها حاسة البصر وهى تنظر إلى الظل فتراه واقفا غير متحرك ، وتحكم بنفى الحركة ؟ ثم بالتجربة والمشاهدة ، بعد ساعة تعرف أنه متحرك ، وأنه لم يتحرك دفعة بغتة ، بل على التدريج ذرة ذرة ، حتى لم تكن له حالة وقوف ، وتنظر إلى الكوكب فتراه صغيرا فى مقدار دينار ، ثم الأدلة الهندسية تدل على أنه أكبر من الأرض فى المقدار . هذا وأمثاله من المحسوسات يحكم فيها حاكم الحس بأحكامه ، ويكذبه حاكم العقل ويخونه تكذيبا لا سبيل إلى مدافعته " فقلت : بطلت الثقة بالمحسوسات " .(١)

إن هذا الإمتحان السريع للمحسوسات أكد للغزالى أن شكه فيها باعتبارها وسيلة من وسائل الإدراك والمعرفة اليقينية – كان – شكا صحيحا . ذلك أن الحس قد يحكم على المتحرك بأنه ثابت واقف ، وعلى الكبير جدا بانه صغير . ومن هنا فإنه لا يجوز للحس أن يكون طريقا لمعرفة العلم اليقينى .

وبعد أن تبين للغزالى أن الحس لا يمكن أن يكون طريقا لمعرفة العلم اليقينى وجدناه يحاول أن يختبر العقل فيقول " قد بطلت الثقة بالمحسوسات أيضا فلعله لا ثقة إلا بالعقليات التى هى من الأوليات ، كقولنا : العشرة أكثر من الثلاثة والنفى والإثبات لا يجتمعان فى الشىء الواحد ، والشىء الواحد لا يكون حادثا قديما ، موجودا معدوما واجبا محالا . فقالت المحسوسات : لم تأمن أن تكون ثقتك بالعقليات كثقتك بالمحسوسات ، وقد كنت واثقا بى ، فجاء حاكم العقل فكذبنى ، ولولا حاكم العقل لكنت تستمر على تصديقى ؟ فلعل وراء إدراك العقل حاكما آخر ، إذا تجلى كذبَّ العقل فى حكمه كما تجلى حاكم العقل فكذب الحس فى حكمه ، وعدم تجلى ذلك الإدراك لا يدل على استحالته ، فتوقفت النفس فى جواب ذلك قليلا ، وأيدت إشكالها بالمنام وقالت : أما تراك تعتقد فى النوم أموراً وتتخيل أحوالا وتعتقد لها ثباتا واستقرارا ، ولا تشك فى تلك الحالة فيها ، ثم تستيقظ فتعلم أنه لم يكن لجميع متخيلاتك ومعتقداتك أصل وطائل ؟ فبم تأمن أن يكون جميع ما تعتقده فى يقظتك بحس أو عقل هو حق بالإضافة إلى حالتك التى أنت فيها ، لكن يمكن أن تطرأ عليك حالة تكون

---

(١) المنقذ من الضلال للغزالى : ص ٧١

نسبتها إلى يقظتك ، كنسبة يقظتك إلى منامك ، وتكون يقظتك نوما بالإضافة إليها ، فإذا وردت تلك الحالة تيقنت أن جميع ما توهمت بعقلك خيالات لا حاصل لها ، ولعل تلك الحالة ما تدعيه الصوفية أنها حالتهم : اذ يزعمون أنهم يشاهدون فى أحوالهم التى لهم إذا غاصوا فى أنفسهم وغابوا عن حواسهم أحوالا لا توافق هذه المعقولات . ولعل تلك الحالة هى الموت إذ قال الرسول ﷺ " الناس نيام فإذا ماتوا انتبهوا " (١) فلعل الحياة الدنيا نوم بالإضافة إلى الآخرة ، فإذا مات ظهرت له الأشياء على خلاف ما يشاهده الان ، ويقال له عند ذلك (فكشفنا عنك غطاءك فبصرك اليوم حديد) (٢) فلما خطرت لى هذه الخواطر وانقدحت فى النفس حاولت لذلك علاجا فلم يتيسر إذ لم يكن دفعه إلا بالدليل ولم يمكن نصب دليل إلا من تركيب العلوم الأولية . فإذا لم تكن مسلمة لم يمكن ترتيب الدليل ، فأعضل هذا الداء ، ودام قريبا من شهرين أنا فيهما على مذهب السفسطة بحكم الحال ، لا بحكم المنطق والمقال ، حتى شفى الله تعالى عني ذلك المرض ، وعادت النفس إلى الصحة والاعتدال ورجعت الضروريات العقلية مقبولة موثوقا بها على أمن ويقين ، ولم يكن ذلك بنظم دليل وترتيب كلام بل بنور قذفه الله تعالى فى الصدر ، وذلك النور هو مفتاح أكثر المعارف فمن ظن أن الكشف موقوف على الأدلة المحررة فقد ضيق رحمة الله تعالى الواسعة ". (٣)

وكانت تجربة المرض فرصة رائعة منحها الله لعبده العالم الباحث عن اليقين كى يعرف بنفسه طريق الأمان فقد قذف الله تعالى فى صدره نورا كشف له حقيقة أكثر المعارف ، وكانت رحمة الله به واسعة حانية فهداه سبحانه وتعالى إلى (نور على نور) ، النور الأول نور العقل والنور الثانى نور البصيرة وكشف الله تعالى عنه غطاءه وشكه ، وأدرك أن من يهبه الله طريق الذوق والكشف يستطيع أن يصـــل إلى العلم اليقينى الذى لا شك بعده . ولا يستطيع أن يصل إلى مرتبة الكشف إلا الواحد بعد الواحد ممن اختارهم الله

---

(١) لم يصح هذا الحديث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم وإنما هذا القول حكمة من حكم الإمام على بن أبى طالب كرم الله وجهه .

(٢) سورة ق آية ٢٢

(٣) المنقذ من الضلال للغزالى : ص ٧٣ : ص ٧٤ .

وقذف في صدورهم نورا هو مفتاح المعرفة ودرب الأمان النفسي والعقلي والقلبي .

يقول الغزالي " وعادت النفس إلى الصحة والاعتدال ورجعت الضروريات العقلية مقبولة موثوقا بها على أمن ويقين ، ولم يك ذلك بنظر دليل ، ولا ترتيب كلام ، بل بنور قذفه الله تعالى في الصدر ، وذلك النور هو مفتاح أكثر المعارف فمن ظن أن الكشف موقوف على الأدلة المحررة فقد ضيق رحمة الله تعالى الواسعة ولما سئل رسول الله عليه السـلام عن " الشرح " ومعناه في قوله تعالى (فمن يريد الله أن يهديه يشرح صدره للاسلام) قال : " هو نور يقذفه الله تعالى في القلب " فقيل : وما علامته ؟ فقال : التجافي عن دار الغرور ، والإنابة إلى دار الخلود . (٢)

ويفرق الغزالي جيدا بين المعرفة عن طريق الحواس والمعرفة عن طريق القلب فيقول في روعة وجمال لا حد لهما في معارج القدس « لو فرضنا حوضا محفورا في الأرض ، احتمل أن يساق إليه الماء من فوقه بأنهار تفتح فيه ، ويحتمل أن يحفر أسفل الحوض ويرفع منه التراب إلى أن يقرب من مستقر الماء الصافي ، فينفجر الماء من أسفل الحوض ، ويكون ذلك الماء أصفى وأدوم ، وقد يكون أغزر وأكثر ، فلذلك القلب مثل الحوض ، والعلم مثل الماء ، وتكون الحواس الخمس مثل الأنهار . وقد يمكن أن تساق العلوم إلى القلب بواسطة أنهار الحواس والإعتبار بالمشاهدات حتى يمتلىء علما . ويمكن أن تسد هذه الأنهار بالخلوة والعزلة وغض البصر ويعمد إلى عمق القلب بتطهيره ورفع طبقات الحجب عنه حتى تنفجر ينابيع العلم من داخله » . (٣)

يقول الأستاذ ديبور " لا شك أن الغزالي أعجب شخصية في تاريخ الإسلام ومذهبه صورة لشخصيته ، فلقد أدرك الغزالي في تصوفه أن المسألة الدينية أعمق مما أدركها فلاسفة عصره ، فقد كان هؤلاء الفلاسفة عقليين في نزعتهم شأن فلاسفة اليونان ، فاعتبروا أن مقررات الدين ثمرة للقوة المتخيلة أو الوهم من جانب الشارع ، ورأوا أن دين

---

(١) أخرج هذا الحديث ابن جرير وعبد الرازق وابن أبي حاتم .

(٢) المنقذ من الضلال للغزالي ص ٧٤ .

(٣) معارج القدس للغزالي صفحة ١٣٤ طبعة القاهرة ١٩٢٧ .

المتدينين إما انقياد وطاعة عمياء لدى البعض ، أو هو ضرب من المعرفة فيه حقائق أدنى مرتبة من حقائق الفلاسفة لدى البعض الآخر وجاء الغزالى فبين أن الدين ذوق وتجربة من جانب القلب والروح وليس مجرد أحكام شرعية أو عقائد تلقى ، بل هو تجربة يحسها المتدين بروحه إحساسا حيا ، ويمارسها عمليا " . (١)

ومن هنا تكون الإرادة الحرة للإنسان المؤمن هى أخص سمات التجربة الذوقية للوصول إلى المعرفة اليقينية . فالإيمان الذوقى يؤدى إلى التحرر ، والعبودية لله وحده تعنى التحرر من عبادة العبيد ومن الطواغيت المختلفة ومعنى أنى أتذوق التجربة أنى أمارس إرادتى بحرية ومعنى أنى حر أنى موجود وجودا حقيقيا وكلما اقتربت من الله تعالى ازدادت حريتى يقينا وإذا ما وصلت إليه كنت الحر على الحقيقة وكنت عبد الله المحب للحقيقة والواصل إلى اليقين .

٢ - الشك بين الغزالى وديكارت :

الحقيقة أن الغزالى قد استفاد من شكه المنهجى فائدة عظيمة أدت به إلى المعرفة اليقينية . وبهذا المنهج الشكى المتميز سبق الغزالى ديكارت صاحب الشك المنهجى المعروف فتجارب ديكارت " قوضت - شيئا فشيئا كل ما لديه من ثقة فى الحواس كأداة للمعرفة الصحيحة ، إذ لاحظ كثيرا أن الأبراج التى تبدو للرائى مستديرة عن بعد ، تبدو فى نظره مربعة متى كان قريبا منها ، وأن التماثيل الضخمة التى تعلو قممها ، تبدو صغيرة الحجم متى نظر إليها من أسفل . بل لاحظ فى كثير من المناسبات أن أحكامه التى يقيمها على حواسه الداخلية كثيرا ما تخطىء . وقد عرف من أشخاص بترت سيقانهم أو أذرعتهم أنه كان يلوح لهم أحيانا أنهم يحسون ألما فى العضو المبتور منهم ، فدعاه هذا إلى الإعتقاد بأنه لا يستطيع أن يكون على يقين من وجود ألم حقيقى يصيب عضوا فى جسمه حتى ولو أحس هذا الألم .

هذا وهناك سببان آخران يبرران الشك فى المعرفة الحسية .

---

(١) تاريخ الفلسفة فى الإسلام لديبور ترجمة د . محمد عبد الهادى أبو ريدة ص ٢٧٢ .

أولهما : أنه ما أحس شيئا في يقظته إلا ظن أن في وسعه أن يحسه أثناء النوم ، وهو لا يظن أن ما يحسه في نومه صادر بالفعل عن أشياء خارجية لهذا لم يجد مُسوغا يسوغ له تصديق ما يحسه في يقظته أكثر من تصديقه ما يحسه أثناء نومه .

وثاني السببين : أنه كان قد زعم أنه لا يعرف بعد خالقه - وهو ضامن الصدق في تفكيره - ولهذا لم يجد ما يمنعه من الشك في الطبيعة ، والظن بأنهما هيأته أو خلقته بحيث يخطىء حتى فيما يلوح له أنه أصح الأشياء وأصدقها (١) .

ومن خلال هذه الرؤية الديكارتية للشك تلمس بسهولة متناهية مدى ما تحتويه من منهج الغزالي للوصول إلى المعرفة اليقينية ، فيكاد ديكارت أن يستخدم - إلى حد كبير - نفس منهج الغزالي في الشك من أجل تأسيس المعرفة الحقة .

وبالإضافة إلى وجود التشابه القوى بين الغزالي وديكارت في مسألة المعرفة فإن هناك أيضا تشابها بينهما في مسألة موقف العقل من الوحي .

فمن المعروف أن ديكارت « نحى حقائق الوحي عن مجال العقل لأنها - في رأيه - لا تدرك إلا بمدد من السماء خارق للعادة » (٢) .

وكما نعلم أن العقل عند الغزالي - قاصر على إدراك المسائل الإلهية التي لا نعرفها إلا من خلال خبر السماء الموحى لنبي معصوم .

ومن هنا فإن الفلاسفة عنده لم يتمكنوا من إدراك شيء في علومهم الإلهية لأن براهين الإلهيات عندهم ليست قاطعة كبراهين الهندسيات .

وقد بين الغزالي بوضوح وجلاء أن الشك المنهجي طريق للإدراك والمعرفة اليقينية الأصيلة ، وجلى لنا حقيقة كبيرة وهي أنه من لم يشك لا يصل إلى المعرفة الحقة ولا يعرف اليقين التام .

كما أظهر لنا أن العقل الإنساني لا يستطيع أن يدرك الحقائق الكبرى لقصوره عن

---

(١) أسس الفلسفة للدكتور توفيق الطويل ص ٢٤٥ ، ٢٤٦ . ط ٢ .

(٢) المرجع السابق صفحة ٢٣٥ .

ذلك ولأن فوقه قوة أعظم ولهذا حجَّم العقل فى استخدام المناهج الفلسفية ، وبين أن المنهج الذوقى الصوفى لما فوق العقل .

وقد انتهى ديكارت إلى ما انتهى إليه الغزالى من قبله بعدّة قرون من أن الناس تستمد الثقة فى قدرة الحواس والعقل من الإيمان بوجود الله تعالى وثقتهم برحمته . فديكارت يؤمن إيمانا قويا بأن الله تعالى لا يمنحنا الات خادعة مضللة ، حقيقة أنها قد تعطينا معرفة ليست يقينية لكنها - أى الحواس والعقل - وسيلتان من وسائل المعرفة منحهما الله للإنسان ولابد من استخدامهما استخداما مناسبا .

يقول ديكارت فى " تأملاته " (١) كل ما تلقيته حتى الـــيوم وآمنت بأنه أصدق الأشياء ، وأوثقها ، قد اكتسبته من الحواس . أو بواسطة الحواس ، غير أنى جربت هذه الحواس فى بعض الأحيان فوجدتها خداعة ، ومن الحكمة أن لا نطمئن كل الأطمئنان إلى من خدعونا ولو مرة واحدة .

لكن قد يقال : لئن كانت الحواس تخدعنا بعض الأحيان فى أشياء ، صغيرة جدا ، وبعيدة جدا عن متناولنا فقد نقع على أشياء كثيرة أخرى ، لا نستطيع أن نشك فيها شكا يقبله العقل ، وإن كنا نعرفها بطريق الحواس .

مثال ذلك أنى ههنا جالس قرب النار ، ولابس عباءة المنزل ، وهذه الورقة بين يدى ، وأشياء أخرى من هذا القبيل .

وكيف أستطيع أن أنكر أن هاتين اليدين ، يداى ، وهذا الجسم جسمى ، اللهم إلا إذا أصبحت مثيلا لبعض المخبولين الذين اختلت أدمغتهم وغشى عليها بسبب الأبخرة السوداء ، الصاعدة من المرارة فما ينفكون يؤكدون أنهم ملوك ، فى حين أنهم فقراء جدا ، وأنهم يلبسون ثيابا موشاة بالذهب والإرجوان ، فى حين أنهم فى غاية العرى أو يتخيلون أنهم جرار ، وأن لهم اجساما من زجاج .

---

(١) التفكير الفلسفي للدكتور سليمان دنيا رحمه الله رحمه واسعة ص ١١٢ : ص ٢١٤ نقلا عن التأملات لديكارت صفحات ٤٥ ، ٥٥ ، ٥٦ ، ٥٧ .

ألا إنهم مجانين ، ولن أكون أنا أقل منهم إسرافا وخبلا إذا اقتديت بهم ونسجت على منوالهم .

ولكن ينبغي علي هنا أن أعتبر أني إنسان ، وأن من عادتي لذلك أن أنام ، وأن أرى في أحلامي عين الأشياء التي يتخيلها هؤلاء المخبولون في يقظتهم ، بل قد أرى أحيانا أشياء أبعد عن الواقع مما يتخيلون .

كم من مرة وقع لي أن أرى في المنام أني في هذا المكان ، وأني لابس ثيابي وأني قرب النار ، مع أني أكون في سريري متجردا من ثيابي .

يبدو لي الآن أني أنظر إلى هذه الورقة بعينين نائمتين ، وأن هذا الرأس الذي أحمله ليس ناعسا ، وأني أبسط هذه اليدين وأقبضها عن قصد ووعي .

إن ما يقع في النوم لا يبدو مثل هذا كله وضوحا وتمييزا ، ولكن عندما أطيل التفكير في الأمر ، أتذكر أني كثيرا ما انخدعت في النوم بأشباه هذه الرؤى ، وعندما أقف عند هذا الخاطر أرى بغاية الجلاء أنه ليس هنالك أمارات يقينية ، نستطيع بها أن نميز بين اليقظة والنوم تمييزا دقيقا ، فيساورني الذهول ، وإن ذهولي لعظيم ، حتى أنه يكاد يصل إلى اقناعي بأني نائم . . .

وإذن فلنفرض الآن أننا نائمون وأن جميع هذه الخصوصيات من فتح العين وهز الرأس وبسط اليدين ، وما شابه ذلك ، إن هي الا رؤى كاذبة .

ولنذهب إلى أنه لم تكن أيدينا ولا أجسامنا بأكملها ، علي نحو ما نراها ، لكن لابد على الأقل من أن نسلم بأن الأشياء التي تتمثل لنا في النوم ، كلوحات و صور ، لا يستطاع تكوينها إلا على غرار شيء واقعي وحقيقي .

وإذن فهذه الأشياء العامة على الأقل – كالعينين والرأس واليدين والجسم بأكمله – ليست أشياء متخيلة بل هي واقعية وموجودة .

فالحقيقة أن المصورين ، وإن كانوا يبذلون ما أوتوا من مهارة في تمثيل بنات البحر ، والتيوس الآدمية ، في أشكال ، هي غاية في الغرابة ، والبعد عن المألوف ، لا يستطيعون مع هذا أن يضفوا عليها أشكالا وطبائع جديدة كل الجدة ولكنهم إنما يصنعون

مزيجا من أعضاء حيوانات مختلفة ، وإن ما تيسر لهم من شطط الخيال مما يحملهم على أن يبتدعوا شيئا يبلغ من جدته أن أحدا لم ير قط له مثيلا ، ويكون عملهم لذلك شيئا مختلفا أصلا ، وزائفا اطلاقا ، فلابد على الأقل من أن تكون الألوان التي يؤلفونها منها حقيقية .

ويمكن أن يقال ، قياسا على السبب المتقدم : إنه لو صح أن هذه الأشياء العامة – أعني الجسم والعينين والرأس واليدين وما شابه ذلك – يمكن أن تكون خيالية ، فإنه لا مناص مع ذلك من الإقرار بأن هنالك على الأقل أشياء أخرى أبسط وأشمل منها ، وهى حقيقية وموجودة ، ومن امتزاجها على نحو ما تمتزج بعض الألوان الحقيقية ، يتكون كل ما يقوم فى فكرنا من صور الأشياء ، سواء كانت هذه الصور حقيقية وواقعية ، أو مختلقة ووهمية .

ومع ذلك فإن معتقدا قد رسخ فى ذهنى منذ زمن طويل ، وهو أن هنالك إلها قادرا على كل شيء ، وهو صانعى وخالقي على نحو ما أنا موجود .

فما يدرينى لعله قضى بأن لا يكون هنالك أرض ولا سماء ، ولا جسم ممتد ، ولا شكل ولا مقدار ولا مكان ، ودبر مع ذلك أن أحسّ هذه الأشياء جميعا وأن تبدو لى موجودة على نحو ما أراها .

بل لما كنت أرى أحيانا أن غيرى يغلطون فى الأمور التى يحسبون أنهم أعلم الناس بها ، فما يدرينى لعله قد قدر ، أن أغلط أنا أيضا ، كلما جمعت اثنين وثلاثة ، أو أحصيت اضلاع مربع ، أو أطلقت حكما على شيء أسهل من ذلك لو أمكن أن نتصور شيئا أسهل منه .

ولكن لعل الله لم يشأ إضلالى على هذا النحو ، لأنه سبحانه كريم رحيم .

ومن قبل " ديكارت " عرض الغزالي المسألة نفسها والحل نفسه ونص الغزالى في هذا الشأن قد ذكرناه من قبل . ومن الأفضل أن نؤكده مرة ثانية قال الغزالى :

« فانتهى بى طول التشكيك إلى أنه لم تسمح نفسى بتسليم الأمان فى المحسوسات ، ومن أين الثقة بها ، وأقوى الحواس حاسة البصر ، وهى تنظر إلى الظل فتراه واقفا غير متحرك وتحكم بنفى الحركة ثم بالتجربة والمشاهدة بعد ساعة تعرف أنه متحرك ، وأنه لم يتحرك دفعة بغتة ، بل على التدرج ذرة ذرة ، حتى لم تكن له حالة وقوف .

وتنظر إلي الكواكب فتراه صغيرا فى مقدار دينار ، ثم الأدلة الهندسية تدل على أنه أكبر من الأرض فى المقدار .

هذا وأمثاله من المحسوسات يحكم فيها حاكم الحس بأحكامه ، ويكذبه حاكم العقل ويخونه تكذيبا لا سبيل إلى مدافعته » . (١)

ويحتمل أن ديكارت قد قرأ النص اللاتيني للمنقذ وعرف رأى الغزالى ومنهجه الشكى من خلال أحد معارفه أو أصدقائه ممن اطلعوا على فكر الغزالي وأعجبوا به .

٣ – الغزالى وأصحاب الوضعية الحديثة :

لقد سبق الغزالى بفكره المبدع أصحاب الوضعية الحديثة . فقد وافقوه فى مسألتين مهمتين:

أولاهما : أن الغزالى وأصحاب الوضعية الحديثة يتفقان فى مسألة يقينية العلوم الصورية فالاثنان يعتبران العلوم الرياضية والمنطقية علوما يقينية .

والمسألة الثانية : أن الاثنين يتفقان فى اعتبار العلوم التى تقوم على التجربة والمعرفة التجريبية علوما احتمالية أو ترجيحية وليست العلوم التجريبية ترقى إلي رقى اليقين فى العلوم الصورية .

وقد اختلف أصحاب الوضعية الحديثة مع الغزالى فى مسألة واحدة وهى أنه يقول بالمعرفة الغيبية " الميتافيزيقا " أساسا من أسس المعرفة ويرد الغزالى المعرفة الغيبية إلى خبر السماء والوحى أى أنه يردها إلي خبر النبى المعصوم .

أما أصحاب الوضعية الحديثة فإنهم ينكرون الميتافيزيقا (المعرفة الغيبية) إنكارا تاما .

والغزالى كما أشرنا يعرف تماما أن المعرفة التجريبية عن طريق الحواس معرفة

---

(١) المنقذ من الضلال للغزالى ص ٧١ .

ترجيحية احتمالية لا ترقى إلى درجة اليقين الكامل وهو لا يرى ترابطا بين السبب والمسبب وأنه ليس ضروريا الاقتران بين الاثنين أى بين السبب والمسبب وليس إثبات أحدهما متضمنا لإثبات الآخر ، ولا نفيه متضمنا لنفى الآخر ، فإن اقترانهما لما سبق من تقدير الله سبحانه وتعالى . ولنستمع إلى الغزالى وهو يقول هذه المعانى فى نص رائع بديع (١) "الاقتران بين ما يعتقد في العادة سببا وبين ما يعتقد مسببا ليس ضروريا عندنا ؛ بل كل شيئين ليس هذا ذاك ولا ذاك هذا ولا إثبات أحدهما متضمنا لإثبات الآخر ، ولا نفيه متضمنا لنفى الاخر ، فليس من ضرورة وجود أحدهما وجود الآخر ، مثل الرى والشرب ، والشبع والأكل ، والاحتراق ولقاء النار ، والنور وطلوع الشمس ، والموت وجز الرقبة ، والشفاء وشرب الدواء ، وإسهال البطن واستعمال المسهل ، وهلم جرا إلي كل المشاهدات المقترنات فى الطب والنجوم والصناعات والحرف .

فإن اقترانها لما سبق من تقدير الله سبحانه ، يخلقها على التساوى لا لكونه ضروريا فى نفسه ، غير قابل للفوت ، بل فى المقدور خلق الشبع دون الأكل ، وخلق الموت دون جز الرقبة ، وإدامة الحياة مع جز الرقبة . وهلم جرا إلى جميع المقترنات .

وأنكر الفلاسفة امكانه وادعوا استحالته .

والنظر فى هذه الأمور الخارجة عن الحصر يطول ، فلنعين مثالا واحدا هو الاختراق فى القطن مثلا عند ملاقاة النار ، فإنا نجوز وقوع الملاقاة بينهما دون الإحتراق ، ويجوز حدوث انقلاب القطن رماداً محترقا دون ملاقاته النار وهم ينكرون جوازه .

والكلام فى هذه المسألة ثلاثة مقامات :

المقام الأول : أن يدعى الخصم أن فاعل الاحتراق هو النار فقط ، وهو فاعل بالطبع لا بالاختيار ، فلا يمكنه الكف عما هو فى طبعه ، بعد ملاقاته لمحل قابل له .

وهذا مما ننكره ، بل نقول : فاعل الاحتراق – بخلق السواد فى القطن والتفرق فى أجزائه ، وجعله حُراقا رمادا – هو الله تعالى ، إما بواسطة الملائكة أو بغير واسطة ، فأما النار – وهى جماد – فلا فعل لها .

---

(١) تهافت الفلاسفة للغزالى جـ ١ ص ٤٤ ، ص ٤٥ .

فما الدليل على أنها الفاعل ، وليس لهم دليل ، إلا مشاهدة حصول الاحتراق عند ملاقاة النار ، والمشاهدة تدل على الحصول عندها ، ولا تدل على الحصول بها ، وأنه لا علة له سواها ...... الخ .

والواقع أن الغزالى يريد أن يقول أن لا فاعل فى الحقيقة إلا الله فهو اليقين الذى ما بعده يقين . ولهذا لا يجوز نسبة العلِّية إلا إليه سبحانه وتعالى فهو الفاعل على الحقيقة وهو العلة الأولى وهو كما يقول الغزالى قبل وجود العالم كان المريد موجودا والإرادة موجودة ، ونسبتها إلى المراد موجودة ، ولم يتجدد مريد ، ولم تتجدد إرادة ، ولا تجدد للإرادة نسبة لم تكن قبل .

ويقول الغزالى « إن الله يجوز أن يخلق ما يسمى علة بدون أن يخلق ما يسمى معلولا » (١) . وهذا ما أشار إليه فيما بعد مالبرانش (ت ١٦٧٧ م) وهيوم (ت ١٧٧٦ م) .

وقد قال هيوم « بأن التجربة ترينا فقط أن واقعة ما ينتج عنها أخرى دون أن تبين لنا ارتباطا ضروريا بينهما ، أى الارتباط الذى يراد بهذا التعبير علاقة السببية » (٢). بل أن " مالبرانش " يصرح بأن السبب الحقيقى الذى الشىء به هو الله وحده ، فإن السبب الحقيقى فى رأيه هو ما يرى العقل ارتباطا ضروريا بينه وبين ما ينتج عنه ، وهذا ما لا يراه العقل إلا لله الذى يكون عن إرادته وحدها كل شىء ، ولا يمكن أن يجعل الله هو القوة لشىء مما خلق ، وإلا لتعددت الآلهة الخالقة . ومن ثم فإن الإنسان حين يحرك ذراعيه مثلا يفعل هذا بقوة ليست فى الحق منه (٣) .

ومن ناحية أخرى فإن الغزالى لا يرى تناقضا بين العقل والشرع ويؤكد أهمية الجمع بين العلوم العقلية والشرعية فيقول فى إحيائه " وظن من يظن أن العلوم العقلية مناقضة للعلوم الشرعية وأن الجمع بينهما غير ممكن ، هو ظن صادر عن عمى فى عين البصيرة ...

---

(١) تهافت الفلاسفة للغزالى صفحة ٢٧٨ .

(٢) عن الدكتور محمد يوسف موسى رحمه الله فى كتابه « بين الدين والفلسفة » ص ١٩٤ . نقلا عن تاريخ الفلسفة الحديثة بالفرنسية لهوفدنج .

(٣) المرجع السابق صفحة ١٩٤ .

فالداعى إلى فحص التقليد مع عزل العقل بالكلية جاهل ، والمكتفى بمجرد العقل عن أنوار القرآن والسنة مغرور . فإياك أن تكون من أحد الفريقين ، وكن جامعا بين الأصلين ، فإن العلوم العقلية كالأغذية ، والعلوم الشرعية كالأدوية (١) .

* * *

(١) إحياء علوم الدين للغزالي ص ٣٠ .

ثانيا : أصناف الطالبين عند الغزالى

١ - الغزالى .. وعلم الكلام :

أراد الغزالى أن يبحث عن الحقيقة عند الفرق المختلفة فهولاء هم السالكون سبل الحق فأسرع بتتبع واستقراء ما عند هذه الفرق فابتدأ بالمتكلمين وثنى بالفلاسفة وثلث بالباطنية وربع بالصوفية .

وعن مقصود علم الكلام يقول الغزالى " صادفته علما وافيا بمقصوده ، غير واف بمقصودى ، وإنما مقصوده حفظ عقيدة أهل السنة على أهل السنة ، وحراستها عن تشويش أهل البدعة ". (١)

يقصد الغزالى أن مقصود علم الكلام هو حفظ العقيدة على مسلم أخذ مبادئه من القرآن والسنّه أى حفظهما من كل شكوك يضعها أعداء الإسلام حول مبادىء وأصول الدين ... هذا هو مقصود علم الكلام فهو علم لا يعتقد بصحة قضاياه إلا المؤمن بعقائده أصلا .

أما مقصود الغزالى فقد كان إدراك قواعد الدين إدراكا يقينيا واضحا يستند إلي العقل " وهذا قليل النفع فى حق من لا يسلم سوى الضروريات شيئا أصلا ، فلم يكن الكلام فى حقى كافيا ، ولا لدائى الذى كنت أشكوه شافيا " . (٢)

ويقول الغزالى عن علماء الكلام " وكان أكثر خضوعهم فى استخراج متناقضات الخصوم ومؤاخذتهم بلوازم مسلماتهم " . (٣)

وكان الغزالى موضوعيا فى تفكيره حين قال " فلم يكن الكلام فى حقى كافيا ولا لدائى الذى كنت أشكوه شافيا . نعم : لما نشأت صنعة الكلام وكثر الخوض فيه وطالت المدة ، تشوق المتكلمون الى محاولة الذب عن السنة بالبحث عن حقائق الأمور وخاضوا فى

---

(١) المنقذ من الضلال للغزالى ص ٧٩ .

(٢) ، (٣) المرجع السابق ص ٨٠ .

البحث عن الجواهر والأعراض وأحكامها ولكن لما لم يكن ذلك مقصود علمهم ، لم يبلغ كلامهم فيه الغاية القصوى ، فلم يحصل منه ما يمحو بالكلية ظلمات الحيرة فى اختلافات الخلق ولا أبعد أن يكون قد حصل ذلك لغيرى بل لست أشك في حصول ذلك لطائفة ولكن حصولا مشوبا بالتقليد فى بعض الأمور التى ليست من الأوليات والغرض الآن حكايه حالى ، لا الإنكار على من استشفى به فإن ادوية الشفاء تختلف باختلاف الداء وكم من دواء ينتفع به مريض ويتضرر به آخر " (١) .

ومن زاوية أخرى فإن الغزالي يعرض قيمة علم الكلام ويعده من العلوم التى هى لباب وجواهر . لا علوم القشور . فقد قسّم الغزالى فى كتابه « جواهر القرآن » العلوم إلى علوم هى قشور وعلوم هى لباب . ومن العلوم القشور عنده النحو . وقسم علوم اللباب طبقتين ، إحداهما أقل قيمة من الآخرى ، وقسم الأقل قيمة إلى ثلاثة جعل القسم الثانى هو محاجة الكفار ومجادلتهم ، ومنه يتشعب علم الكلام قال : (المقصود لرد الضلالات والبدع ، وإزالة الشبهات سمينا الطبقة القريبة منها « الرسالة القدسية » والطبقة التى فوقها « الاقتصاد فى الاعتقاد » .

ومقصود هذا العلم حراسة عقيدة العوام من تشويش المبتدعة (٢) . وطبيعى أن هذا يعنى أن الغزالى يعرف أثر علم الكلام فى الدفاع عن العقيدة أمام المبتدعة كما أنه اعتبره من علوم اللباب لا علوم القشور . وقد ألف كتب كلامية متعددة من أهمها : « الاقتصاد فى الاعتقاد » و« الدرة الفاخرة » .

ويتضح من ذلك أن الغزالي كان موضوعيا مع نفسه فهو وإن ألف فى علم الكلام إلا أنه يعترف بأنه غير واف فى موضوعه كما أنه لا ينكر على من استفاد به فقد ينتفع بالدواء مريض ويستضربه آخر .

ولا غرو فى ذلك فقد كان الغزالى خبيرا بعلم الكلام يعرف سائر مسائله ومدى منفعته يقول فى " إحيائه " « وأما منفعته فقد يظن أن فائدته كشف الحقائق ومعرفتها على ما هو

---

(١) المرجع السابق ص ٨٠ ، ص ٨١

(٢) جواهر القرآن للغزالى ص ٢١ .

عليه ، وهيهات ، فليس فى الكلام وفاء بهذا المطلب الشريف ولعل التخبيط والتضليل فيه أكثر من الكشف والتعريف ، وهذا إذا سمعته من محدث أو حشوى ، ربما خطر ببالك أن الناس أعداء ما جهلوا ، فاسمع هذا ممن خبر الكلام ثم قلاه بعد حقيقة الخبرة وبعد التغلغل فيه إلى منتهى درجة المتكلمين وجاوز ذلك إلى التعمق فى علوم أخر تناسب نوع الكلام ، وتحقق أن الطريق إلى حقائق المعرفة من هذا الوجه مسدود » . (١)

وقد أخذ الغزالى على علماء الكلام عدة أشياء فقال :

« إن حاصل ما يشتمل عليه الكلام من الأدلة التى يتنتفع بها ، يشتمل عليها القرآن والأخبار ، وما خرج عنهما فهو محاولة مذمومة وهى من البدع وإما مشاغبة « مخاصمة » بالتعلق بمناقضات الفرق لها ، وتطويل بنقل المقالات التى أكثرها ترهات ، وهذيانات تزدريها الطباع ، وتمجها الأسماع ، وبعضها خوض فيما يتعلق بالدين ولم يكن شيء منه مألوفا فى العصر الأول ، وكان الخوض فيه بالكلية من البدع » . وضرب الغزالى لذلك مثلا :

فقال : « إن معرفة الله وصفاته وأفعاله لا تحصل من علم الكلام ، بل يكاد الكلام حجابا عليه ومانعا منه ، وإنما الوصول إليه بالمجاهدة » .

وفى كتابه " إلجام العوام عن علم الكلام " أنكر الغزالى على عوام الناس أن يشتغلوا بعلم الكلام ، وقال إن دين عوام الناس ينبغى أن يكون صافيا نقيا بعيدا عن تعقيدات الجدليين والمتكلمين ولهذا ينبغى إلجام العوام عن علم الكلام وهذا ما أكده أيضا فى " فيصل التفرقة . "

يقول الغزالى : إذا تركنا المداهنة ومراقبة الجانب ، صرحنا بأن الخوض فى « الكلام » حرام لكثرة الافة فيه إلا لأحد شخصين : رجل وقعت له شبهة ليست تزول عن قلبه بكلام قريب وعظى ولا بخير نقلي والشخص الثانى كامل العقل راسخ القدم فى الدين ثابت الإيمان بأنوار اليقين ، يريد أن يحصل هذه الصفة ليداوي بها مريضا إذا وقعت له شبهة ، وليفحم بها مبتدعا إذا نبغ وليحرس بها - معتقده إذا قصد مبتدع إغواءه . فإذا حصل

---

(١) الإحياء للغزالى ص ١٩٨ .

هذه الصفة كان ذلك من فرض الكفايات ، والإيمان الراسخ على الحقيقة هو إيمان العوام الحاصل فى قلوبهم من الصبا بتواتر السماع .. وتماع تأكده بلزوم العبادة والذكر فإن من تمادت به العبادة إلى حقيقة التقوى وتطهير القلب من كدورات الدنيا ، وملازمة ذكر الله دائما ، تجلت له أنوار المعرفة ، وصارت الأمور التى كان قد أخذها تقليدا عنده كالمعاينة والمشاهدة . و« الكلام » المستفاد من الدليل الكلامى ضعيف جدا ، مشرف على الزوال بكل شبهة »(١)

هكذا نلاحظ أن الإمام الغزالى يقول بأن الإيمان عند العوام هو الذى يكون فى قلوبهم عن طريق السماع والتواتر وأن كمال هذا الإيمان يكون بكثرة العبادة والذكر حتى تتضح له أنوار المعرفة اليقينية ، ويصير ما أخذه قبل ذلك بالسماع والتواتر والتقليد مشاهدة.

وكان الإمام الغزالى نموذجا للفكر الإسلامى الصحيح ولهذا كشف بجرأة عن التعصب الدينى لدى بعض المتكلمين الذين أتهموا الفرق المخالفة لهم بالكفر والزندقة ونادى بأنه يجب على المسلمين أن يكفوا ألسنتهم عن أهل القبلة ما داموا يؤمنون بأنه لا إله إلا الله محمد رسول الله وما داموا غير مناقضين لها .

وقال أنه لا يصح تكفير مسلم لأنه أوّل نصًا دينيا تأويلا يخالف تأويل الآخر وأوضح أن المبادرة إلى التكفير إنما تغلب على طباع يغلب عليهم الجهل وضيق الأفق والتعصب المذهبى الأعمى .

وقال الغزالى فى" فيصل التفرقة بين الإسلام والزندقة " من أشد الناس غلوا وإسرافا ، طائفة من المتكلمين كفروا عوام المسلمين وزعموا أن من لا يعرف الكلام معرفتنا ، ولم يعرف الأدلة الشرعية بأدلتنا التى حررناها فهو كافر .. فهؤلاء ضيقوا رحمة الله الواسعة على عباده .. وجعلوا الجنة وقفا على شرذمة يسيرة من المتكلمين .. ثم جهلوا ما تواتر من السنة .. فليت شعرى : متى نقل عن رسول الله ﷺ ، أو عن الصحابة رضى

---

(١) فيصل التفرقة للغزالى صفحة ٢٠٢ وصفحة ٢٠٤ .

الله عنهم ، احضار اعرابى أسلم ، وقوله له : الدليل على أن العالم حادث : أنه لا يخلو عن الأعراض وما لا يخلو عن الحوادث حادث . وأن الله تعالى عالم بعلم ، وقادر بقدرة زائدة على الذات ، لا هى هو ، ولا هى غيره ، الى غير ذلك من رسوم المتكلمين . .. .. نعم لست أنكر أنه يجوز أن يكون ذكر أدلة المتكلمين أحد أسباب الإيمان فى حق بعض الناس ولكن ليس ذلك بمقصور عليه ، وهو أيضا نادر ، بل الأنفع الكلام الجارى فى معرض الوعظ كما يتشمل عليه القرآن ، فأما الكلام المحرر على وسم المتكلمين فإنه يشعر نفوس المستمعين بأنه فيه صنعة جدل ليعجز عنه العالى ، لا لكونه حقا فى نفسه ، وربما يكون ذلك سببا لرسوخ العناد فى قلبه ، ولذلك لا ترى مجلس مناظرة المتكلمين ، ولا للفقهاء ينكشف عن واحد انتقل من الاعتزال ، أو من بدعة الى غيره ولا عن مذهب الشافعى الى مذهب أبى حنيفة ، ولا على العكس .. ولذلك لم تجر عادة السلف بالدعوة بهذه المجادلات ، بل شددوا القول على من يخوض فى الكلام ويشتغل بالبحث والسؤال » (١) .

لقد بين لنا الغزالى فى السابق مدى سعة أفقه واهتمامه بلب الدين وجوهره وروحه ، وكشف لنا عن حقيقة التعصب لدى بعض المتكلمين الذين يهتمون بالتقعرات اللفظية والشكلية بينما جوهر الدين أبسط وأوضح من هذه الأدلة والبراهين التى يستخدمونها بلا وعى صحيح ، فالدين يهتم بالجوهر لا بالرسم والعرض .

وفى « فيصل التفرقة » أوضح أن أصول الإيمان ثلاثة :

الإيمان بالله وبرسوله وباليوم الآخر ، وما عداه ، فروع وأنه لا تكفير فى الفروع أصلا إلا فى مسألة واحدة ، وهى أن ينكر أصلا دينيا علم من الرسول ﷺ عن طريق التواتر .

لكن فى بعضها تخطئة ، كما فى الفقهيات ، وفى بعضها تبديع ، كالخطأ المتعلق بالإمامة وأحوال الصحابة .

ويقول الغزالى « إن الخطأ فى أصل الإمامة ، وتعينها وشروطها وما يتعلق به لا

---

(١) فيصل التفرقة للغزالى ص ٢ . ٢ باختصار .

يوجب شيء منه تكفيرا » . فقد أنكر ابن كيسان أصل وجوب الإمامة ولا يلزم تكفيره .

ولا يلتفت إلى قوم يعظمون أمر الإمامة ، ويجعلون الإيمان بالإمام مقرونا بالإيمان بالله ورسوله . ولا إلى خصومهم المكفرين لهم بمجرد مذهبهم فى الإمامة فكل ذلك إسراف إذ ليس فى واحد من القـولين تكذيب للرسول ﷺ أصلا ، ومهما وجد التكذيب ، وجب التكفير ، وإن كان فى الفروع ..

وأما الأصول الثلاثة . وكل ما لم يحتمل التأويل فى نفسه ، وتواتر نقله ولم يتصور أن يقوم برهان على خلافه فمخالفته تكذيب محض .

ومثاله : ما ذكرناه من حشر الأحياء ، والجنة والنار ، وإحاطة علم الله تعالى بتفاصيل الأمور ، وما يتطرق اليه من احتمال التأويل ولو بالمجاز البعيد ، فتنظر فيه إلى البرهان : فإن كان قاطعا ، وجب القول به . ولكن إن كان فى إظهاره مع العوام ضرر لقصور فهمهم فإظهاره بدعة . وإن لم يكن البرهان قطعيا ، لكن يفيد ظنا غالبا ، وكان ذلك لا يعلم ضرورة في الدين كنفى المعتزلة الرؤية عن الله تعالى ، فهذه بدعة وليس بكفر . وأما ما يظهر له ضرر ، فيقع فى محل الاجتهاد والنظر ، فيحتمل أن يكفر ويحتمل أن لا يكفر . ومن جنس ذلك ما يدعيه بعض من يدعى التصوف أنه قد بلغ حالة بينه وبين الله تعالى اسقطت عنه الصلاة ، وأحلت له شرب الخمر والمعاصى ، وأكل مال السلطان .

فهذا ممن لا شك فى وجوب قتله ، وإن كان الحكم بخلوده فى النار محل نظر ، وقتل مثل هذا ، أفضل من قتل مائة كافر ، إذ ضرره فى الدين أعظم وينفتح به باب من الإباحة لا ينسد . (١)

هذه هى روح السماحة الدينية الحقة عند حجة الإسلام الإمام الغزالى الذى لا يكفر مسلما شهد أن لا إله إلا الله وأن محمد رسول الله إلا من أنكر أمرا من أمور الدين معلوما بالضرورة كالصلاة والزكاة والصوم والحج .

وكم ألح الغزالى على رحمة الله الواسعة فقد سبقت رحمته غضبه ، فقد جاء فى

---

(١) فيصل التفرقة للغزالى صفحة ١٩٥ : ١٩٧ باختصار .

حديث (أول ما خط الله فى الكتاب الأول : أنا الله ، لا إله إلا أنا ، سبقت رحمتى غضبى ، فمن شهد أن لا إله إلا الله وأن محمد عبده ورسوله فله الجنة) .

٢ - الغزالى والفلسفة :

بعد معرفة الغزالى بحقيقة علم الكلام ، ولى وجهه ناحية الفلسفة علّه ينقع فيها غلته فأخذ يعب منها عبًا حتى استطاع أن يعرف حقيقة الفلسفة ، وآفاتها وغائلتها وقسم الفلاسفة إلى ثلاثة أقسام :

الدهريــون : أصحاب القول بقدم العالم وهؤلاء زنادقة ملاحدة .

والطبيعيون : وهم الذين أكثروا بحثهم فى الطبيعة وعالم الحيوان والنبات وتشريح الحيوانات فرأوا عجائب صنع الله ، ولكنهم ذهبوا إلى القول بأن النفس تموت ولا تعود ، فجحدوا الآخرة وأنكروا الحشر والحساب ولهذا انهمكوا فى الشهوات نتيجة إنكارهم الجنة والنار وهؤلاء زنادقة أيضا .

والإلهــيون : وهم المتأخرون منهم مثل : سقراط وأفلاطون وأرسطو ويري الغزالى انحراف فكرهم فوجب عنده تكفيرهم وتكفير شيعتهم من المتفلسفة الإسلاميين كابن سينا والفارابى .

وبعد ذلك يحدثنا الغزالى عن أقسام علومهم ويقسمها ستة أقسام :

رياضية : تتعلق بعلم الحساب والهندسة والفلك ، وهى علوم برهانية دقيقة ولعل دقة براهينها حملت البعض على حسن الاعتقاد فى الفلاسفة .

منطقية : وهى تختص بالنظر فى طرق الأدلة والقياس وشروط مقدمات البرهان وهو القياس المؤلف من اليقينيات وكيفية تركيب مقدمات البرهان وشروط الحد الصحيح وكيفية ترتيبه وأن العلم إما تصور (وهو إدراك الماهية بدون أن يحكم عليها بنفى أو إثبات) وسبيل معرفتهَ الحد ، وإما تصديق وسبيل معرفته البرهان ، وعلوم الفلاسفة المنطقية ليس فيها ما ينبغى أن ينكر لأنه لا يتعلق بها شيئ من الدين ، بل قد تفيدنا فى معرفة صحيح الفكر من فاسده .

وأما علم الطبيعيات : فهو بحث في العالم وما يحتويه من سموات وأرض وأجسام مركبة كالحيوان والنبات والمعادن ، وليس من شرط الدين إنكار علم الطبيعة .

وأما السياسيات : فكلام الفلاسفة فيه يرجع إلى مصالح الناس الخاصة بأمورهم الدنيا .

وأما الخلقية : فجميع كلامهم فيها يرجع إلي حصر صفات النفس وأخلاقها وكيفية معالجتها ومجاهدتها ، ويرى أنهم أخذوها من الصوفية .

وأما الإلهيات : ففيها كما يقول الغزالى أكثر أغاليطهم وقد كفرهم فى كتابه التهافت فى مسائل ثلاث ، وبدعهم فى سبع عشر مسألة . فكفرهم فى قولهم إن الأجساد لا تحشر ، وأن الله لا يعلم الجزئيات وقولهم بقدم العالم وأزليته . (١)

ويقول الغزالى " فى منقذه " « وأما ما وراء ذلك من نفيهم الصفات وقولهم أنه عليم بالذات لا بعلم زائد عن الذات وما يجرى مجراه ، فمذهبهم فيها قريب من مذهب المعتزلة ولا

---

(١) ليس كل فلاسفة الإسلام يقولون بحدوث العالم وليس كل فلاسفة الإسلام يقولون بقدم العالم فالكندى فى رسالته فى وحدانية الله وتناهى جرم العالم يقول إن العالم حادث " فليس الزمان متصلا مما لا نهاية ، بل من نهاية اضطرارا ، فليست مدة الجرم بلا نهاية ، وانية الجرم متناهية ، فيمتنع أن يكون جرم لم يزل ، فالجرم إذن محدث إضطراراً ، والمحدث محدث المحدث ، إذن المحدث والمحدث من المضاف فالكل محدث اضطرارا عن ليس .

وهذا يعنى تناهى الجسم والتناهى يؤدى إلى القول بأن العالم مخلوق من العدم ولهذا فهو يقول بحدوث العالم لا قدمه .

وفكرة تناهى الأجسام قال بها المعتزلة قبل الكندى عندما أرادوا البرهنة على حدوث العالم .

ولما كان الجرم متناهيا عند الكندى فإن الزمان يكون أيضا متناهيا " لأنه يقوم على الحركة المتناهية .

ويعتبر الكندى أول فيلسوف مسلم قال بحدوث العالم بينما الفارابى وابن سينا قالا بالفيض فى خلق العالم متأثرين بنظرية الفيض عند أفلوطين غير أن أفلوطين يقول بعقل واحد بينما الفارابى وابن سينا يقولان بعشرة عقول ، وتسع أنفس ، والقول بالفيض يرتب عليه القول بقدم العالم .

ومن مفكرى الإسلام الذين تصدوا لمن قالوا بقدم العالم ابن حزم الأندلسى (ت ٤٥٦) حيث رد على من قالوا بأن العالم قديم وله فاعل يعتبر علة له وهو الله تعالى فيقول " فى الفصل " : إن المعقول هو المنتقل من العدم إلى الوجود ، بمعنى من ليس إلى شىء ، فهذا هو المحدث . ومعنى المحدث هو ما لم يكن ثم كان . وهم يقولون أنه هو الذى لم يزل ، وهذا خلاف المعقول .

يجب تكفير المعتزلة بمثل ذلك » . (١)

ويبدو لنا الغزالي متسامحا نزيها حين يقرر أن لكثير من هذه العلوم فوائد لعدم منافاتها للدين ويقول أيضا " فإذا كان ذلك معقولا في نفسه مؤيدا بالبرهان ولم يكن على مخالفة الكتاب والسنة ، فلم ينبغي أن يهجر ويترك ؟ . " (٢)

فلو فتحنا هذا الباب وتطرقنا إلى أن نهجر كل حق سبق إليه خاطر مبطل لزمنا أن نهجر كثيرا من الحق .

أما بالنسبة لتكفير الفلاسفة في مسألتي قدم العالم وأن علم الله اقتصر على الكليات دون الجزئيات فقد تناول الغزالي حين مناقشتها في التهافت مناقشة فلسفية مسألة الزمان والمكان ولم يجعل بينهما فرقا كالفلاسفة ، إذ هما عنده عبارة عن العلاقات بين تصوراتنا ، بينما الفلاسفة يرون أن للعالم نهاية وأن المكان محدود ، ومن ناحية أخرى يقولون أن الزمان لا ابتداء له ولا انتهاء .

ويقول الغزالي في تهافته « كما أن البعد المكاني تابع للجسم فالبعد الزماني تابع للحركة ، وهو امتداد للحركة ، كما أن ذاك امتداد أقطار الجسم .. فلا فرق بين البعد الزماني الذي تنقسم العبارة عنه ، عن الإضافة إلى « قبل » و« بعد » وبين البعد المكاني الذي تنقسم العبارة عنه ، عن الإضافة إلى فوق وتحت » .

ومن ذلك النص نلاحظ أن الغزالي لم يجعل بين الزمان والمكان فرقا كما يرى فلاسفة ، فالزمان والمكان عبارة عن العلاقات بين تصوراتنا أو هما العلاقة بين الأجسام .

وهذا الرأي يجعل الغزالي قريبا من نظرية « كانت » التي يقول فيها : إن الزمان والمكان ليسا من المعاني الكلية ، بل هما عبارة عن صور سابقة للتجربة نستعين بها على إدراك العالم الخارجي .

والغزالي الذي هاجم الفلسفة يعد عندنا فيلسوفا دينيا كبيرا لأنه كتب في سائر

(١) المنقذ من الضلال للغزالي ص ٩٦ .

(٢) المرجع السابق ص ١٠٢ .

موضوعات الفلسفة الدينية بعمق وأصالة وتجديد .

والموضوعات التى تخص فلسفة الدين يقول عنها فرجيليوس فيرم Vergilius Ferm فى تعريفه لفلسفة الدين إن فلسفة الدين بحث فى موضوع الدين من الناحية الفلسفية .. ومن مسائلها طبيعة الدين ، ووظيفته وقيمته ، صدق دعواه ، الدين والأخلاق .. صلة الله بالإنسان من حيث الحرية والمسئولية ، الكشف الصوفى ، الصلاة واستجابة الدعاء ، قيمة الصور التقليدية فى التعليم والشعائر والعقائد والطقوس والوعظ ، مسألة طبيعة الاعتقاد والإيمان ، مسألة الألوهية ووجودها .. وإن موضوع فلسفة الدين فى نظر الدوائر المحافظة ليس موضوعا لبحث فلسفى حر وإنما هو فلسفة دين معين ، إنه حينئذ دفاع صريح أو مقنع عن دين سبق الإيمان به .

ومن هذا المنطلق لتعريف فلسفة الدين نجد أن الغزالى تناول فى دراسته كل موضوعات الفلسفة الدينية ولا ننسى أن مرجع وأساس اهتمامات الغزالى كان مشكلة فلسفية عميقة هى محاولته الكشف عن قضية اليقين فى المعرفة يقول الغزالى فى منقذه « فظهر لى أن العلم اليقينى هو الذى ينكشف فيه المعلوم انكشافا لا يبقى معه ريب ولا يقارنه إمكان الخطأ والوهم ولا يتسع القلب لتقدير ذلك ، بل الأمان من الخطأ ينبغى أن يكون مقارنا لليقين » . (١)

وقد وجد اليقين فى الحقيقة الصوفية وإن اليقين نور يقذفه الله فى الصدر وهذا النور هو مفتاح أكثر المعارف فى نظره ، وهذا موقف فلسفى بديع يجعلنا نقول عنه – بلا أدنى شك – إنه فيلسوف دينى أصيل .

ولقد استطاع الغزالى أن يبين لنا أن الدين ذوق وتجربة من جانب القلب والروح ، وليس مجرد أحكام شرعية أو عقائد تلقى ، بل هو أكثر من ذلك ؟ هو شىء يحسه المتدين بروحه إحساسا حيا ولا يحس كل إنسان بروحه ما يحس به الغزالى ، والذين لا يستطيعون متابعته اذ يعرج ، على أجنحة التصوف فى مدارج السالكين متخطيا حدود المعارف التى

---

(١) المنقذ من الضلال للغزالى ص ٦٩ .

يمكن اكتسابها بالتحصيل العادى لا محيص لهم عن الإقرار بأن محاولاته فى الوصول إلى الله ، مهما كان فيها من مقامرة فى ميادين المجهول ، ليست أقل شأنا فى تاريخ العقل الإنسانى من مسالك فلاسفة عصره وإن بدت هذه المسالك أدنى إلى اليقين لأن اصحابها إنما ساروا فى بلاد قد كشفها غيرهم من قبل . (١)

والغزالى حين أراد أن يقوض الآراء الخاطئة فى الفلسفة إنما أراد هدمها ليبنى قواعد الدين ويقيمه على اسس من الحق قوية صحيحة .

وقد وضع الغزالى كتابه تهافت الفلاسفة ليهدم الفلسفة بمعول مفكر كبير ناقد ، له بصيرة ودربة بآراء الفلاسفة فأخذ يفتش عن الثغرات فى آرائهم بعين فاحصة وعقل حكيم وما كان هدفه آراء الفلاسفة فى ذاتها لأن بعض هذه الآراء موافق للدين وإنما كانت بغيته تفنيد مسلكهم العقلى وبيان مدى تهافتهم فمقصوده - كما يقول فى تهافته - تنبيه من حسن اعتقاده فى الفلاسفة وظن أن مسالكهم نقية عن التناقض ، ببيان وجوه تهافتهم .

إنه يريد أن يبين للناس أن المعرفة عند الفلاسفة العقليين مصدرها العقل مع أن هناك طورا أخر فوق العقل لم ينته إليه الفلاسفة العقليون هو طور البصيرة ومع أن الغزالى اعتمد علي العقل فى هدمه افكار الفلاسفة إلا أنه يكشف عن قدرات أعظم من العقل فى الكشف عن الحقائق هى قدرة البصيرة عند الخاصة من الناس ، كما كشف لنا بعمق حقيقة هامة هى أن العقل لا يستطيع أن يصل إلى مساتير الغيب وأنه عاجز عن أن يدرك ما وراء الطبيعة .

ثم أن هناك هدفا آخر من محاولته بيان تهافت الفلاسفة وهو قصده هدم الفلسفة عند العامة من الناس أيضا حتى لا يفتتنوا بآراء الفلاسفة ويفتروا بما يهرفون ، فحاول هدمها وبيان الخطأ فى بعض آرائها حتى لا يقبل العامة عليها ويأخذوا أفكارها .

ولقد اتسم الغزالى في نقده الفلاسفة بالنزاهة العلمية والبعد عن التعصب لرأيه ،

---

(١) تاريخ الفلسفة فى الإسلام ص ٣٥٥ - ٣٥٦ تأليف دى بور ترجمة د . أبو ريدة .

وكان يريد البحث عن الحقيقة في جوهر آرائهم وتبيّن مدى الخطل والخطأ فيها .. يقول بلاسيوس : إن الغزالي حينما سمى كتابه « تهافت الفلاسفة » كان يريد ان يمثل لنا أن العقل الانساني يبحث عن الحقيقة ويريد الوصول إليها ، كما يبحث البعوض عن ضوء النهار ، فإذا أبصر شعاعا يشبه نور الحقيقة انخدع به فرمى نفسه عليه ، وتهافت فيه ، ولكنه يخطىء مخدوعا بأقيسة منطقية خاطئة فيهلك كما يهلك البعوض .

فكأن الغزالي يريد أن يقول إن الفلاسفة خدعوا بأشياء أسرعوا إليها بلا إعمال روية فتهافتوا وهلكوا الهلاك الأبدي (١)

ولعل الذي دعاه إلى بيان تهافت الفلاسفة ما وجده من تناقض في آرائهم وَرَدٍّ بعضهم على بعض فيقول لنا في تهافته لقد رد أرسطو طاليس على كل من قبله ، حتى على أستاذه الملقب بأفلاطون الإلهي ، ثم اعتذر عن مخالفة أستاذه وقال : أفلاطون صديق ، والحق صديق ، ولكن الحق أصدق منه – وإنما نقلنا هذه الحكاية ليعلم أنه لا تثبيت ولا إيقان لمذهبهم عندهم وأنهم يحكمون بظن وتخمين من غير تحقيق ويقين .

إن تناقض المذاهب وعدم يقينية آرائها دفع الغزالي إلى هدمها ونقدها نقدا نزيها .

وقد سلك في ذلك مسلك المفكرين المدركين لحقيقة المسألة التي يبحثونها تمام الإدراك . فهو عندي من العبقريات النادرة في التاريخ الإنساني .

بل يعد الغزالي في رأينا – كما ذكرنا من قبل ورغم أنه هاجم الفلسفة – فيلسوفا دينيا من الدرجة الأولى .. .. وقد ظهر ذلك واضحا جليا في كتابه التهافت .. .. فحين شكك في بعض آراء الفلاسفة وفندها ونقدها نقدا علميا وموضوعيا صحيحا فإنه قام بعمل فلسفي بعقلية ثاقبة ، وكأنه تفلسف رغما عنه ، ويرى بعض الفلاسفة أن (وظيفة الفلسفة لا تقوم في وضع حلول للمشكلات) بل تقوم في تفنيد الحلول الموضوعة للمشكلات (٢) .

ويقول أستاذنا الدكتور سليمان دُنيا رحمه الله معلقا على هذا الرأي (٣) ومن عدم

---

(١) المرجع السابق هامش صفحة ٣٢٣ .

(٢) أسس الفلسفة للدكتور توفيق الطويل ص ١٢٦ طبعة ثانية .

(٣) في مقدمة تحقيقه الرائع لكتاب تهافت الفلاسفة ط ٥ ص ٢٣ .

الإنصاف أن يعتبر التشكيك والنقد أعمالا سلبية عديمة الفائدة إنهما – فيما اعتقد (أى الدكتور سليمان دنيا) – أعمال تساعد على بناء وتشييد من نوع آخر . فلو أن شخصا اعتقد أن طريقا معينة يمكن أن توصل إلى الحق فكشف له إنسان عن نقص فى هذه الطريقة وأظهر له مثالبها وعيوبها ، فإن ذلك الإنسان يكون قد صرف ذلك الشخص عن باطل ، ونبه إلى ضرورة البحث عن طرق أخرى عساها تكون أليق بالفرض المطلوب .

إن أرسطو حينما زيف نظرية المثل الأفلاطونية ، لم يكن عمله هذا – وهو هدم لشىء يسمى فلسفة – عملا سلبيا ، وإن عمله هذا كان خطوة تمهيدية لابد منها للوصول إلى نظريته الجديدة التى ملأ بها فراغ النظرية التى استبعدها ، إذ لو لم ينقد نظرية المثل الأفلاطونية – بل آمن بها – لم يكن هناك سبيل لكشف نظرية أخرى تحل محلها .

واذا كان النقد داخلا هكذا فى نطاق الفلسفة فكتاب التهافت إذن فلسفة .

ويحاول الدكتور دنيا رحمه الله أن يبين لنا أن الغزالى كان فيلسوفا بحق وهو يهدم الفلسفة (١) نعم إن هدف كتاب التهافت هو إظهار العقل بمظهر العاجز عن اقتناص الحقائق الإلهية .

ولهذا يحاول الغزالي فيه أن ينتزع ثقة الناس من العقل كمصدر نتعرف منه المسائل الإلهية ، ولكن الغزالى إذ يحاول ، تقييد سلطة العقل ، يتخذ من العقل نفسه مطية للوصول إلى هذه الغاية ، فإذن عمله هذا هو محاولة عقلية لإثبات قصور العقل فى ميدان الإلهيات وشهادة عقلية بأن للعقل حدا يجب الوقوف عنده .

فمن نظر إلى الغاية من كتاب التهافت – تلك التى يصورها الغزالى نفسه بأنها سحب الثقة من الفلسفة – ورآه لهذا بعيدا من نطاق الفلســـــفة فهو مضطر إلى اعتبار وسيلته – تلك التى تقوم على استعراض مناهج الفلاسفة وأدلتهم واستخدام العقل وحده للكشف عن قصورها ، وضعفها وركتها – عملا داخلا فى صميم الفلسفة . إنه عمل يمكن تصويره بأنه بحث فى طاقة العقل . وهل يمكن أن يكون عمل كهذا بعيداً عن مجـــال الفلسفة ؟

---

(١) المرجع السابق صفحة ٢٤ .

ولقد قال أرسطو قديما :

إن من ينكر الميتافيزيقا ، يتفلسف ميتا فيزيقيا

وقال :

(فَلْنتفلْسَف إذا اقتضى الأمر أن نتفلسف ، فإذا لم يقتض الأمر التفلسف وجب أن نتفلسف لنثبت أن التفلسف لا ضرورة له) .

ولقد قال حديثا بعض الفلاسفة الميتافيزقيين عن خصومهم من الفلاسفة الوضعيين :

(إنهم الفلاسفة الذين يفاخرون بأنهم ليسوا فلاسفة إن موقفهم من إنكار الفلسفة موقف فلسفى لا محالة) .

وعلى هذا القياس يكون الغزالى قد تفلسف وهو يهدم الفلسفة ، فالتهافت – إذًا – ان لم يكن فلسفى الغاية فهو فلسفى الموضوع .

والحقيقة أن الغزالى يمثل عقلية الفيلسوف المسلم وإن قراءاته فى الفلسفة بعمق صبغت أفكاره بعقلية فلسفية متميزه ويحضرنى فى ذلك ما قال أبو بكر بن العربى صاحب الغزالى العظيم « شيخنا أبو حامدّ دخل فى بطون الفلاسفة ثم أراد أن يخرج منهم فما قدر » (١)

ويبدو لنا أن الغزالى فى فترة من حياته قد استوعب سائر المراجع والكتب المعروفة فى الفلسفة فى عصره ومنها كتاب « حجج برقلس في قدم العالم » ولعل الغزالى وهو يفند أراء الفلاسفة فى المسائل الثلاثة المشهورة اعتمد على شرح يحيى النحوى النصرانى على مذهب ارسطو . وقد ردّ النحوى على القول بقدم العالم ردا على برقلس أحد القائلين بقدم العالم .

يقول البيهقى (٢) في كلامه عن يحيى النحوي " وأكثر ما أورده الإمام حجة الإسلام

---

(١) نقض المنطق لابن تيمية ص ٥٦ . طبعة القاهرة ١٩٥١ .

(٢) فى كتاب تاريخ حكماء الإسلام (تتمة اليتيمة) مخطوط بدار الكتب المصرية رقم ٦٦٦ م ص ١٧ نقلاً عن هامش ص ٢٣١ بتاريخ الفلسفة فى الإسلام لديبور ترجمة وتعليق د / أبو ريدة .

رحمه الله فى تهافت الفلاسفة تقرير كلام يحيى النحوى " .

ويذكر هذا الكلام أيضا الشهر زورى " فى نزهة الأرواح " (١)

ويقول أن الغزالى أخذ ما أورده فى التهافت من كتب يحيى النحوى وهو يذكر من كتب يحيى الكتاب الذى رد فيه على برقلس .

ويقول الدكتور عبد الرحمن بدوى (٢) إن الغزالى فى هذا الكتاب إنما يعتمد على كتاب لفيلسوف يونانى أفلاطونى محدث هو برقلس الأفلاطونى ورد يحيى النحوى عليه . وهذا الكتاب هو كتاب حجج برقلس فى قدم العالم الذى كان من حسن حظنا أن اكتشفنا له ترجمة عربية قديمة قام بها اسحاق بن حنين ونشرناها في كتابنا « الأفلاطونية المحدثة عند العرب » ص ٣٤ – ص ٤٢ القاهرة سنة ١٩٥٥ وقد وجدنا فيه الحجة الاولى من هذه الحجج . وقد فقدت في أصلها اليونانى ، ولم تبق لنا إلا فى هذه الترجمة العربية الفريدة ، وهذه مأثرة عظيمة من مآثر التراث العربي على التراث اليونانى وهذه الحجج الثمانى عشر قد رد عليها يحيى النحوى الفيلسوف الأسكندرى ، بكتاب كبير ، يثبت فيه بأن العالم محدث وليس قديما ، وهذا الرد قد ترجم إلى العربية إذ ذكر القفطى أنه كانت لديه نسخة بالعربية طبعا من رد يحيى النحوى (القفطى نشره لبيرت ص ٨٩) ★. كما أننا نجد البيرونى فى كتابه (تحقيق ما للهند من مقولة) ينقل عن كتاب يحيى النحوي هذا في ثلاثة مواضع (صفحات ١٧ ، ١١١ ، ١١٤) وكذلك يذكره الشهر ستانى فى « الملل والنحل » (طبعة كيورتن ، ص ٣٣٣ – ٣٤٣) – فيورد ما سماه باسم « شبه برقلس فى قدم العالم » ويقول أنه أفرد كتابا للرد عليها فضلا عن ابن الخمار المتوفى بعد سنة ٤٠٧ هـ فقد دافع عن رد يحيى النحوى برسالة صغيرة فى أن دليل يحيى النحوى على حدوث العالم أولى بالقبول من دليل المتكلمين أصلا وقد عثرنا على هذه الرسالة ونشرناها أيضا ، وهذا يدل على مدى انتشار حجج برقلس ورد يحيى النحوى عليها في العالم الإسلامى فمن الطبيعى جدا أن يعرف

---

(١) نزهة الأرواح مصور بمكتبة جامعة القاهرة ص ١٨٢ ، ص ١٨٣ .

(٢) فى بحثه بمؤتمر دمشق صفحة ٢٢٣ وصفحة ٢٢٤ .

★ يقصد كتابه « إخبار العلماء بأخبار الحكماء » حققه يوليوس ليبرت ، ليبزيج ١٩٠٢ م .

الغزالي حجج برقلس ورد يحيى النحوى ، ولئن كان الغزالى لم يذكر اسم برقلس ولا يذكر اسم يحيى النحوي فى كتابه « تهافت الفلاسفة » فإن هذا لا يدل على شيء لأن الغزالي لا يذكر مصادره وخصوصا هنا يعنيه أن يخفى مصدره لأنه يحيى النحوى ويحيى النحوي فيلسوف على أنه يكفى المرء أن يقرأ كتاب يحيى النحوى فى رده على برقلس فى قوله بقدم العالم ليكتشف فى الحال أن الغزالى ينقل خلاصة ما قاله يحيى النحوي فى رده ، ولا يكاد يضيف شيئا جوهريا إليه ، إنما الخلاف فى العبارات والاصطلاحات وطريقة صياغة الحجاج .

فالحجة الأولى يوردها الغزالى (ص ٢٣ من نشرة بويج ، بيروت سنة ١٩٢٧) وهى قول القائلين بقدم العالم إنه يستحيل صدور حادث من قديم مطلقا هذه الحجة هى الحجة الثالثة من حجج برقلس ، وقد رد عليها يحيى النحوى بمثل ما أورده الغزالى باعتراضاته والزاماته والردود على الاعتراضات والإلزامات والحجة الثانية (ص ٥١ - ٥٢) من حجج القائلين بقدم الدهر - وهى الخاصة باستحالة التقدم بالزمان - هى بعينها الحجة الخامسة من حجج برقلس وقد رد عليها النحوى بما سيقوله الغزالى أيضا ، والدليل الثالث عند الغزالي (ص ٦٦ - ٦٧) يناظر الحجة الثانية من حجج برقلس ، وإن اختلفت العبارة إذ بدأت فكرة الممكن والواجب تدخل فى الإلهيات بدلا من المثال والممثول أو الصورة وشبيهها المحاكى .

وبالمثل يقال عما أورده الغزالى للفلاسفة من حجج على أبدية العالم والزمان والحركة فلها نظائرها فى حجج برقلس ، خصوصا السابعة والثامنة والتاسعة ، وما أورده يحيى النحوى من ردود عليها .

ومن هذا نرى بوضوح أن الغزالى فى « التهافت » إنما رد على آراء بعض الفلاسفة بآراء البعض الآخر ، وبعبارة أدق نراه رد على المشائيين ومن شابههم مثل برقلس ، بكلام استعارة من فيلسوف تأثر بأفلاطون أكثر مما تأثر بأرسطو فى الإلهيات ، فضلا عن أنه فيلسوف ذو دين ونعنى به يحيى النحوي الذي كتب رده هذا سنة ٥٢٩ ميلادية كما يظهر من نص كلامه فى المقالة ١٦ ف ٤ س ١٤ من نشرة Raabe) .

ومن ذلك كله نستطيع أن نقول مطمئنين أن الغزالى اعتمد فى رده على الفلاسفة القائلين بقدم العالم على كتاب يحيى النحوى وفيه دليله على أن حدوث العالم أولى بالقبول من حجج برقلس فى قدم العالم .

والحق أن إسقاطات قراءاته فى الفلسفة وخاصة فلسفة ابن سينا قد ظهر واضحا فى أمرين تناولهما فى فكره وهما مسألة النفس ومسألة المعرفة الإشراقية المتصلة بمسألة الفيض .

فالغزالى يكاد يحذو حذو ابن سينا فى أمر النفس فهو يرى بأنها جوهر مخالف للجسم كما أخذ عنه أهم براهين إثبات وجود النفس كالبرهان الطبيعي وبرهان الاستمرار وبرهان الرجل الطائر وبرهان ابن سينا العقلى فى إثبات روحانيتها .[٩]

أما نظرية الفيض التي رفضها الإمام الغزالي فى كتاب « تهافت الفلاسفة » فإننا نجد بصماتها واضحة فى كتابى « فيصل التفرقة » و« مشكاة الأنوار » ، فالغزالى مثلا فى « مشكاة الأنوار » يرى أن النفس مقتبسة من آخر العقول التى يحتوى عليها عالم الملكوت ، كذلك يرى أن أنوار المعرفة تفيض على عـــقول البشر فبالحَرىً كما يقول فى مشكاة الأنوار – « أن يكون مقتبس الأرواح الأرضية من الأرواح العلوية التى وصفها على وابن العباس رضى الله عنهما فقالا ، إن لله ملكا له سبعون وجها وفى كل وجه سبعون فم وفى كل فم لسان يسبح الله بجميعها » .

وتجد فى مشكاة الأنوار أنه يقول بأن أرواح الملائكة يفيض بعضها عن بعض وأن لها مقامات متدرجة ، تنتهى إلي نور الأنوار وهو الله وحده لا شريك له ، وهو النور الحقيقى وحده ، وكل الأنوار مستعارة منه .

ولا شك عندنا أن قراءاته لفلاسفة الإسلام ووعيه بالفكر الفلسفى كانت له رواسب لاشعورية فى كتاباته جعلته يحذو حذو الفلاسفة الذين نقدهم فى تهافته ثم إن نظرية الفيض فى عصره كانت مثارة باستمرار وكانت قد اختمرت تماما أفكارها وعششت فى عقول كثير ممن اطلعوا على هذه النظرية .

وإننا نلاحظ أن الغزالى فى « معارج القدس » و« المشكاة » و« الرسالة اللدنية » قد

تأثر بالفكر الإشراقي ونظرية الفيض وقد وجـــدنا هذه الأفكار عند ابن سينا فى رسالته « النبوات » حيث فسر الوحى والنبوة من خلال نظرية الفيض .

فابن سينا في رسالة النبوات يرى أن الوحي « إفاضة العقل الكلى على نفس النبى الذى ينتهى إليه التفاضل فى الصور المادية وفيضان العلوم منه على لوح قلب النبى بواسطة العقل الفعال والملك المقرب هو كلامه ، والرسالة هى ما قيل من الأمور المفاضة على نفس النبى المسماه وحيا على أى عبارة استصوبت لصلاح عالمى البقاء والفساد علما وسياسة .. والرسول هو المبلغ ما استفاده من الإفاضة المسماه وحيا » .

ولهذا فنحن لا نشك فى أن الغزالى قد تأثر إلى حد كبير بنظرية الفيض وبالفلسفة الإسماعيلية وفلسفة ابن سينا وبخاصة من خلال رسالة الشيخ الرئيس عن « النبوات » بل إن الغزالي فى الرسالة اللدنية يستخدم ألفاظاً استخدمها من قبله « إخوان الصفا » وفلاسفة الإسلام وبخاصة ابن سينا مثل تعبيرات « النفس الكلية » « العقل الكلى » « النفس القدسية » فالعقل الكلى هو المعلم والنفس القدسية هى المتعلم ، والنفس الكلى هو العلم ، وصور المعلومات تنتقش علي صفحة النفس القدسية بدون واسطة ولا تعلم من خارج ، يقول تعالى (وعلمناه من لدنا علما) وقد تعلم أدم من غير معلم ، وهذا علم الأنبياء الذين يأخذون عن الله مباشرة بلا توسط ولا وسيلة . والعلم الغيبى الآتى عن الوحى أقوى وأكمل من العلوم المستفادة ، وصار علم الوحى كما يقول الغزالى إرثا للنبوة وحقا للرسل . ثم أغلق هذا الباب بعد محمد ﷺ ، وإن كان علمه أكمل وأتم وأشرف ، لأنه حصل عن التعلم الربانى وعلمه شديد القوى .

والعلم الحاصل بالوحى سمى علما نبويا أما الحاصل بالإلهام فيسمى علم لدنيا ، فمن إفاضة العقل الكلى يتولد الوحى ، ومن إشراق النفس الكلية يتولد الإلهام فالوحى حلية الانبياء ، والإلهام حلية الأولياء .

والنفس دون العقل والولى دون النبى والإلهام دون الوحى .

الحق أن بذور الفكر الاشراقى ونظرية الفيض تبدو واضحة – كما قلنا فى بعض كتابات الإمام الغزالى وبخاصة الرسالة اللدنية والمشكاة ويبدو لنا أن ما يقرأه الإنسان بعمق

وفهم عظيمين تظل أثاره داخل عقله ويظهر دون أن يدرى فى بعض كتاباته . وهذا ما حدث مع شيخنا العظيم الإمام الغزالي .

فإن كانت بعض أرائه تجنح إلى الاتحاد فى " مشكاة الأنوار " إلا أن " إحياء علوم الدين " يعد المصدر الأساسى للتصوف السنى وهو الكتاب الهام الذى أثر فى سائر المتصوفين السنيين فيما بعد وهو المرجع والمعتمد فى التصوف السنى وفيه يهدم بعنف نظرية الاتحاد عن الحلاج .

ولهذا فالغزالى يعد بحق رائد التصوف السنى فى فكرنا الإسلامى .

٣ - الغزالى .. ومذهب التعليمية الباطنية .

بعد أن فرغ الغزالى من علم الفلسفة وبيانه أنه غير واف بغرضه لأن العقل ليس مستقلا بالإحاطة بجميع المطالب (١) استغرق فى التعرف علي التعليمية عقيدة الإسماعيلية فوجد أنهم يقولون (إن العقل لا يؤمن عليه الغلط ، حكما يصح أخذ حقائق الدين عنه) .

وهذا ما وصل إليه الغزالى عند اختباره الفلاسفة لكن التعليمية يأخذون مسائل الدين فى شكلها اليقينى عن طريق المعلم الإمام المعصوم الذي يتلقى قضاياه عن الله .

يقول الغزالى فى المنقذ من الضلال " ولكن معلمنا المعصوم وهو محمد ﷺ . فإذا قالوا هو ميت . فنقول " فمعلمكم غائب . فإذا قالوا : " معلمنا قد علم الدعاة وبثهم فى البلاد ، وهو ينتظر مراجعتهم إن اختلفوا أو أشكل عليهم مشكل فيقول " ومعلمنا قد علم الدعاة وبثهم فى البلاد وأكمل التعليم " ، إذ قال الله تعالى " اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتى " . وبعد كمال التعليم لا يضر موت المعلم ، كما لا يضر غيبته ". (٢)

هكذا ناقشهم الإمام الغزالى وحاورهم حوارا عقليا رائعا إنهم يقولون إن الإمام المعصوم يتلقى عن الله مباشرة ولكن حين سألهم عنه قالوا إن الإمام المعصوم فى الخفاء . فبقي قول الإسماعيلية : " كيف تحكمون فيما لم تسمعوه ؟ أبالنص ولم تسمعوه ؟ أم

---

(١) المنقذ للغزالى ص ١٠٨ .

(٢) المرجع السابق ص ١١١ .

بالاجتهاد والرأى وهو مظنة الخلاف ؟ فنقول : نفعل ما فعله معاذ إذ بعثه رسول الله ﷺ إلى اليمن : أن نحكم بالنص عند وجود النص ، وبالاجتهاد عند عدمه .

وبين لهم أن الرسول ﷺ أباح الاجتهاد فيما لا نص فيه من كتاب وسنة . وقد بين الغزالى فساد مذهب التعليمية والباطنية فى أكثر من رسالة وكتاب . مـــــــثل كـتاب " المستظهرى " وكتاب " حجة الحق " وكتاب " الدُّرج " المرقوم بالجداول و " القسطاس المستقيم " .

ويقول الغزالى فى " المنقذ من الضلال " " إن هؤلاء ، ليس معهم شيء من الشفاء المنجى من ظلمات الآراء ، بل هم مع عجزهم عن إقامة البرهان على تعيين الإمام ، طالما جاريناهم فَصَدَّقناهم فى الحاجة إلى التعليم ، وإلي المعلم المعصوم ، وأنه الذى عينوه ، ثم سألناهم عن العلم الذى تعلموه من هذا المعصوم ، وعرضنا عليهم إشكالات فلم يفهموها فضلا عن القيام بحلها ، فلما عجزوا أحالوا على الإمام المعصوم ، وقالوا أنه لا بد من السفر إليه " .

والعجب أنهم ضيعوا عمرهم في طلب المعلم ، وفى التبجح بالظفر به ولم يتعلموا منه شيئا أصلا ." (١)

وهم فى البحث عن المعلم المعصوم مخدوعون فلا حقيقة له فى الظاهر . يقول الغزالي " فلما خبرناهم نفضنا اليد عنهم أيضا " . (٢)

وهكذا فند الغزالى آراء التعليمية وبين خطأ اساس معتقداتهم وضلال معتقداتهم فى الرمام المعصوم إذ لا معصوم سوى الأنبياء عليهم السلام .

لقد دَرَس حجة الإسلام علم الكلام والفلسفة وآراء التعليمية بعمق ليعرف عن علم ودراية الحقيقة وأشار فى المنقذ أنه " لا يقف على فساد نوع من العلوم من لا يقف علي منتهى ذلك العلم ، حتى يساوى أعلمهم فى أصل ذلك العلم ، ثم يزيد عليه ويجاوز درجته ،

---

(١) ، (٢) المرجع السابق ص ١١٨ ، ص ١٢٠ .

فيطلع على ما لم يطلع عليه صاحب العلم من غور وغائلة ، وحين يتم له ذلك يمكن أن يكون ما يدعيه من فساده حقا .

وهكذا انتهى به الأمر إلى معرفة الفرقة الرابعة وهي الصوفية .

٤ - الغزالة والصوفية .

الفرقة الرابعة وهى فرقة الصوفية ، منهجهم الذوق ، وحين عاشرهم الغزالى وجدهم أحسن الناس أخلاقا وأطيبهم عشرة ووجد عندهم اليقين الذى كان يبحث عنه كما سنوضح ذلك بإذن الله .

وقد بدأ الغزالى بمعرفة علمهم من خلال كتب التصوف مثل " قوت القلوب فى معاملة المحبوب " لأبى طالب المكى ، " والرعاية لحقوق الله عز وجل " للمحاسبى ، والمتفرقات المأثورة عن أقطاب التصوف مثل الجنيد والشبلى والبسطامى وغيرهم .

ويقول الغزالى في منقذه من الضلال عن الصوفية " إنى علمت يقينا أن الصوفية هم السالكون لطريق الله خاصة وأن سيرتهم أحسن السير ، وطريقهم أصوب الطرق وأخلاقهم أزكى الأخلاق ، بل لو جمع عقل العقلاء وحكمة الحكماء ، وعلم الواقفين على أسرار الشرع من العلماء ليغيروا شيئا من سيرهم وأخلاقهم ، ويبدلوا بما هو خير منه ، لم يجدوا إليه سبيلا ، فإن جميع حركاتهم وسكناتهم ، فى ظاهرهم وباطنهم ، مقتبسة من نور مشكاة النبوة ، وليس وراء نور النبوة على وجه الأرض نور يستضاء به ، فماذا يقول القائلون فى طريقة طهارتهم ، وهى أول شروطها - تطهير القلب بالكلية عما سوى الله تعالى ، ومفتاحها الجارى منها مجري التحريم من الصلاة استغراق القلب بالكلية بذكر الله ، واخرها الفناء بالكلية فى الله " . (١)

لقد ذاق الغزالى تجربة التصوف عن خبرة وممارسة ، وحين مارسها تجرد لها عن متع الحياة الزائلة ، وعرف أنه لا يستطيع أن يحكم على تجربة التصوف إلا من جرب أو ذاق وعرف فقال فى المنقذ " وهذه حالة يتحققها بالذوق من سلك سبيلها ، فمن لم يرزق

---

(١) المرجع السابق ص ١٣١ ، ص ١٣٤ .

الذوق ، فيتيقنها بالتجربة والتسامع ، إنْ أكثر معهم الصحبة حتى يعرف ذلك بقرائن الأحوال يقينا ، ومن جالسهم استفاد منهم هذا الإيمان ، فهم القوم لا يشقى جليسهم ، ومن لم يرزق صحبتهم فليعلم إمكان ذلك يقينا بشواهد البرهان ، على ما ذكرناه فى كتاب " عجائب القلب ، من كتب إحياء علوم الدين " .

والتحقيق بالبرهان علم ، وملابسة عين تلك الحالة ذوق ، والقبول من التسامع والتجربة بحسن الظن إيمان . فهٰذه ثلاث درجات ،" يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين أوتوا العلم درجات " . (١)

ولعل الذى جعله يتجه إلى التصوف بكليته أنه بدأ حياته العلمية لدى رجل صوفى هو الذى كفله وتربى على يديه مع أخيه أحمد ، بالإضافة إلى اطلاعه على كتب الصوفية ثم نوبة المرض التى انتابته جعلته يشعر أن لا ملجأ إلا إليه سبحانه وتعالى فاتجه إليه بكليته خالصا صادقا فى حبه لله وزهده عن أعراض الدنيا .

وأيضا كان من أساتذة الغزالى الصوفى الزاهد أبو على الفضل بن محمد بن على الفَارْمَذِىّ الطوسى (٢) . وقد أخذ الغزالى عليه الطريق وعرف منه جواهر التصوف وحقيقة الحياة الروحية فى الإسلام .

ويوضح لنا الغزالى فى " المنقذ " أن أخص خواص الصوفية هو الذوق ولا يمكن الوصول إليه بالتعلم المجرد لأن الذوق فى اصطلاح الصوفية كما يقول هو " نور عرفانى يقذفه الحق بتجليه فى قلوب أوليائه فيفرّقون به بين الحق والباطل ، بغير حاجة إلى الاعتماد على كتاب أو نحوه ، كما يُدْرك بالحال ، وهى عند الصوفية ، معنى يرد على القلب من غير تصنع ولا اجتلاب ، ولا اكتساب ، من طرب أو حزن ، أو قبض أو بسط ويزول الحال بظهور صفات النفس ، فإذا دام وصار ملكة ، سمى مقاما ، فالأحوال مذاهب والمقامات مكاسب ، والأولى تأتى من عين الجود ، والثانية ببذل المجهود ، وأن لا سبيل إلى بلوغ هذه الخواص بغير العمل المقترن بالعلم " .

(١) المرجع السابق ص ١٣١ ، ص ١٣٤

(٢) توفى الفارمذى سنة ٤٧٧ هـ بطوس . وكان من تلاميذ الإمام القشيرى صاحب الرسالة القشيرية .

إذن لقد تخلص الغزالى من الشك وعرف الحقيقة .. يقول لنا الغزالى " وكان قد ظهر عندى أن لا طمع لى فى السعادة الاخرة . إلا بالتقوي وكف النفس عن الهوى ، وأن رأس ذلك كله قطع علاقة القلب عن الدنيا ، بالتجافى عن دار الغرور ، والإنابة إلى دار الخلود ، والإقبال بكنه الهمة على الله تعالى ، وإن ذلك لا يتم إلا بالإعراض عن الجاه والمال ، والهرب من الشواغل والعوائق " .

ورسم لنا الغزالي تمام الطريق الصوفى بقوله " ان تخلو بنفسك فى زاويه ، تقتصر من العبادة علي الفرائض والرواتب وتجلس فارغ القلب ، مجموع الهم ، مقبلا بذكرك على الله ، وذلك فى أول الأمر بأن تواظب باللسان على ذكر اله تعالى فلا تزال تقول : الله الله ، مع حضور القلب وادراكه ، إلى أن تنتهى إلى حالة لو تركت تحريك اللسان لرأيت كأن الكلمة جارية على لسانك لكثرة اعتياده ، ثم تصير مواظبا عليه ، إلي أن لا يبقى فى قلبك إلا معنى اللفظ ، ولا يخطر ببالك حروف اللفظ وهيئات الكلمة ، بها يبقى المعنى المجرد حاضرا فى قلبك على اللزوم والدوام ، ولك اختيار إلى هذا الحد فقط ولا اختيار بعد ذلك ، إلا فى الاستدامة لدفع الوساوس الصارفة ، ثم ينقطع اختبارك فلا يبقى لك إلا الانتظار لما يظهر من فتوح ظهر مثله للأولياء .. .. فهذا منهج الصوفية وقد ورد الأمر فيه إلى تطهير محض من جانبك وتصفية وجلاء ، ثم استعداد وانتظار فقط " .

وهكذا انتهى الغزالى إلى أن الكشف الصوفى أو الإلهام هو أبرز مصادر المعرفة اليقينية بعد الوحى . وهو عطاء يفيض به الله تعالى على قلب الصوفى العارف إذا ما كان العارف يملك الاستعداد لهذا الكشف الوهبى العظيم . وهذه المعرفة القلبية الكشفية تكون مصحوبه ببرد اليقين ، ونور اليقين عند المؤمنين والراسخين فى العلم ، وهذا النور الفياض يغمر القلب فيتضح معه كل شىء " وهذا النور من الوضوح بحيث أنه قد يخفى لشدة جلائه ، وقد يغفل عنه العارف لإشراق ضيائه " .

فعن طريق الكشف الصوفى أو الإلهام يكون العلم اليقينى وهو الذى قال عنه الغزالى إنه يتكشف فيه المعلوم انكشافا لا يبقى معه ريب .

وتصوف الغزالى يمثل التصوف السنى فى الإسلام ، فلقد رفض نظريات الحلول

والاتحاد عند الحلاج التى نتج عنها فيما بعد فكرة وحدة الوجود عند ابن عربى فى القرن السابع الهجرى ، وبين الغزالى أن العبد عبد والرب رب ، ولن يكون أو يصير أحدهما الآخر البته .

ويقول الغزالى " إن من طلب غيره (أى غير الله) فقد عبده " (١) .

ورفض الغزالى رفضا تاما فكرة أن الله روح العالم أو أنه العالم فينكر عنه بسط فكرة أن الله خلق آدم على صورته : " إن آدم أنموذج ولا يخلو إلا نموذج عن محاكاة لما هو أنموذج عنه ، فالروح الإنسانى يحاكى الله فى ذاته وصفاته وأفعاله فهو يدبر البدن كما يدبر الله العالم ، والجسم الإنسانى عالم صغير فى مقابلة العالم الكبير .. كل جزء منهما له نظير فى الاخر .. هل الله روح العالم ؟ كلا أما الدليل فهو أن الله خلق العالم بإرادته واختياره وهو الحافظ له ، والقادر على إفنائه باختياره وارادته ، وإلا لما كان هناك معنى للخلق ولا للاختيار ولا معنى للإرادة (٢) .

إن الغزالى يريد أن يؤكد على حقيقة طالما أشار إليها وهى أن العبد عبد والرب رب .

ويحاول الغزالى من منطلق التسامح الذى اتسم به مع الصوفيه أن يعتذر عن شطحات بعضهم فيقول :

" فليس للعارف أن يزعم إدراك الذات الإلهية فضلا عن أن يزعم الاتحاد بها أو حلولها فيه ، وإذا كانت المشاهدة أسمى مرتبة من الاستدلال ، فإنها ليست كشفا تاما يزول معه كل حجاب ، وإذا وجدنا متصوفا يدعى الحق (يقصد الحلاج) وجب تأويل قوله : إما على أنه يعترف بأن لا وجود له إلا بالحق ، وهذا التأويل منه بعيد لأن اللفظ لا ينبىء به ، ولأن كل شىء سوى الحق فهو بالحق ، وأما على ان صاحب الذوق يغفل عن ذاته فيكون همه الحق وحده بحيث لا يكون فيه متسع لغيره ، ويقول الغزالي إن هذا التأويل العقلى وحده هو الذى يمكننا من تفسير وفهم شطحات الصوفية : لأن من يستغرقه شىء فينسيه كل شىء

(١) إحياء علوم الدين جـ ١ ص ٢٢ .

(٢) المنقذ ص ٤٤ ، ص ٤٥ .

سواه يجوز له لا على سبيل الحقيقة أن يقول أنه هو هو " (١) .

والغزالي يريد أن يعتذر عن شطحات الصوفية لأن ما يقولونه مجرد وهم وليس بالحقيقة أبداً .. ويوضح لنا الغزالى ان المتصوفة الخلص من المسلمين لم يذهبوا فى التعبير عن استغراقهم التام فى الحق إلى حد القول بالحلول والاتحاد . والذين يزعمون أن ما يقولونه هو الحقيقة فهو باطل وهو مجرد استغراقات أو نوع من القرب " يكاد يتخيل منه طائفة الحلول وطائفة الاتحاد وطائفة الاتصال وكل ذلك خطأ ، فالله يتجلى ظاهرا من جهة افعاله ، ولكنه يظل باطنا لشدة ظهوره ، وعندئذ لا يظهر إلا للعقل لا للحواس ، وإذا فهم الذوق هذا الفهم لم يكن هناك ما يدعو العقل لإنكاره .. فإن من ليس له قدم راسخة فى المعقولات ربما لم يميز أحدهما عن الاخر فينظر إلى كمال ذاته وقد تزين بما تلألأ فيه من حليه الحق ، فيظن أنه هو فيقول إنه الحق .

ويوضح لنا الغزالى مصدر القول بالحلول فيقول إن مصدره المسيحية (إنه أى الحلولَ لا يتصور بين عبدين فكيف يتصور بين العبد والرب والعبد وعبد والرب رب .. أليس معنى الحلول هو انطباق جوهر علي جوهر أو جسم على جسم أو عنصر في جوهر) وهذا يستحيل عقلا نسبته إلى الصلة بين الذات الإلهية .. ونفس العارف " مهما بلغت هذه النفس من الصفاء ، والتجرد عن كل ما يشغلها عن الحق ، ثم إذا كانت النفس حادثة ولا وجود لها إلا بإرادة خالقها ، فكيف يتصور عقلا أن تكون هى هو .

وإذا نحن سلمنا بإمكان ذلك بالنسبة إلى نفس واحده ، فكيف لا نسلم به لجميع النفوس ، وعندئذ يصبح العالم كله الهه . فمن المحال إذن أن يحل الله فى النفوس أو أن ينطبع فيها انطباع الخمر فى اللبن فإن ذلك من صفات الأجسام (٢) .

وينفى الغزالى فكرة الاتحاد ويهدمها من أساسها هدما عقليا عن طريق القسمة الجدلية التي تبرهن على استحالة كل حالة منها فيخرج بنتيجة كبري هى أن الاتحاد بين ذاتين أمر مستحيل لأن العقل لا يمكن أن يقبله .. لأنه فى حالة الاتحاد بين ذاتين " اما أن

---

(١) كيمياء السعادة ٨٧ ، ٨٨ .

(٢) المقصد الأسنى للغزالى .

تظل كل منهما قائمة بنفسها وإذن فليس هنا اتحاد . ومثال ذلك أن الإرادة والعلم والقدرة توجد فى ذات واحدة ، ولكنها ليست متحدة ، لأنه يبقى من المقرر أن الإرادة غير العلم وغير القدرة . وإما أن يقال ربما تفنى إحدى الذاتين وتظل الأخرى موجودة وهذا باطل " . فلا يمكن فى هذين الاحتمالين الحديث عن أى نوع من الاتحاد لأنه لا يمكن أن يحدث اتحاد بين موجود ومعدوم . أما الاحتمال الثالث وهو القول بانعدام الذاتين معا فهو فاسد من أساسه لأن حديثنا هنا عن الانعدام ، وليس حديثا عن الاتحاد .

وعن طريق القسمة الجدلية يصل بنا الغزالى إلى هذه النتيجة الهامة وهى " أصل الاتحاد إذن باطل وحيث يطلق الاتحاد ويقال : هو هو ، لا يكون إلا بطريق التوسع والتجوز اللائق بعادة الصوفية والشعراء " .

ومن ثم ينبغى علينا أن نؤول ما نسب مثلا إلى أبى يزيد البسطامى من أنه قـــال : " سبحانى ما أعظم شأنى " فنقول إنه يتلفظ بهذه العبارات ليعبر بها عن عظمة الله وجلاله ، مثلما ينطق المرء بقوله تعالى " لا إله إلا أنا فاعبدنى " فليس من المعقول أن يقول هذه الألفاظ متصوف طالبا من الناس أن يعبدوه .

هذا ويمكن تأويل قول البسطامى " سبحانى ما أعظم شانى " تأويلا آخر وهو أنه فى حالة المشاهدة شاهد جمالا وكمالا فى نفسه . فقال عن قدس نفسه سبحانى ، كما شاهد عظم شأنه بالنسبة للآخرين فقال " ما أعظم شانى " مع الاعتراف بالفرق الجوهرى بينه وبين قدس الله تعالى وعظم شأنه سبحانه وتعالى . ثم أنه لم يقل مثل هذه العبارة إلا وهو فى حالة جذب ووجد وسكر ، لا فى حالة صحو .

ويؤكد الغزالى أنه من المهم للغاية أن يحفظ الصوفى لسانه فى حال صحوه ولا يتلفظ بمثل هذه العبارات الموهمة بالاتحاد الموحية بالمماثلة بين الله تعالى والعبد .

يقول الغزالى فى المقصد الأسنى " ومن صدق بمثل هذا الحال فقد انخلع عن غريزة العقل ، ولم يتميز عنده ما يعلم عما لا يعلم ، ومن لم يفرق بين ما أحاله العقل وبين ما لا يناله العقل فهو أخس من أن يخاطب فليترك وجهله " ومن ذلك كله نستطيع أن نقول إن تصوف الغزالى كان يمثل التصوف السنى فى الإسلام " .

وبعد .. فلازلت أردد قول العماد الأصفهاني " إني رأيت أنه لا يكتب أحد كتابا في يومه إلا قال في غده ، لو غير هذا لكان أحسن ، ولو زيد هذا لكان يُستَحْسَنْ ، ولو قُدّم هذا لكان أفضل ، ولو تُرك هذا لكان أجمل ، وهذا من أعظم العبر وهو دليل على استيلاء النقص على جملة البشر " .

ثم يبقى أن : أحمدك ربيّ كثيرا على سابغ نعمائك وعطاياك عليّ وإني أسألك الهداية والتوفيق . وأسألك الشكر على العافية والغنى عن الناس وأسألك الجنة يا رب العالمين .. وأسألك قبول هذا العمل وأن تجعله خالصا لوجهك الكريم . وأسألك الشهادة في سبيلك والموت في المدينة المنورة فقد روى البخاري أن عمر قال « اللهم ارزقني شهادة في سبيلك ، واجعل موتي في حرم رسولك الأمين » اللهم آمين .

وختاما : فإن كنت قد وفقت فلله تعالى المنّة والشكر ، وإن أكن قصرت فإن الكمال لله وحده ، ومنه أستمد العون لدرك ما فاتني ، وهو الموفق والهادي سواء السبيل "

العبد الفقير الى الله تعالى

عامر النجار



الملحق

آثـــار الغزالـــى

١ - المطبوعة

التصوف

١٠ - آداب الصوفية : طبع فى مصر

٢٠ - الآداب فى الدين : طبع ضمن مجموع فى القاهرة ١٣٤٣ .

٣٠ - الأربعين فى أصول الدين : وهو القسم الثالث من جواهر القرآن طبع فى مكة ١٣٠٢ .

٤٠ - الإملاء عن أشكال الإحياء : رد به اعتراضات أوردها بعض المعاصرين له على بعض مواضع من الإحياء طبع بهامش « إتحاف السادة المتقين » للزبيدى المرتضى كما طبع فى فاس ١٣٠٢ .

٥٠ - إحياء علوم الدين : وهو من أجل كتب المواعظ وأعظمها طبع فى مصر غير مرة ، وفى لكناو ١٣٨١ ، وبه حواش وتقييدات ؛ ومنه نسخ خطية فى مكاتب ڤيينا وبرلين وليدن والمتحف البريطانى وأوكسفورد ؛ وعليه شروح عديدة منها : « إتحاف السادة المتقين » طبع فى فاس ١٣٠٢ هـ فى ١٣ مجلداً ؛ وفى القاهرة ١٣١١ فى عشرة مجلدات . ومنها : « منهاج القاصدين » لابن الجوزى ، ومنه نسخة خطية فى دار الكتب المصرية وأخرى فى مكتبة باريس . ومنها : « روح الإحياء » لابن يونس ، ومنه نسخة فى مكتبة أوكسفورد .

وقد اختصره السيد جمال الدين القاسمى الدمشقى وسماه « موعظة المؤمنين من إحياء علوم الدين » طبع ثلاث مرات فى القاهرة .

٦٠ - أيها الولد : كتبه لبعض أصدقائه نصحاً له ، وذكر نصائح ووصايا فى الزهد والترغيب والترهيب . طبع مع ترجمة ألمانية فى ڤيينا ١٨٣٨ و ١٨٤٢ باعتناء « هامر برغستال ، كما طبع فى مصر ؛ ومنه نسخ خطية متفرقة فى مكاتب أوروبا وفى دار الكتب المصرية .

٧٠ - بداية الهداية وتهذيب النفوس بالآداب الشرعية : طبع فى القاهرة عدة مرات . ومنه نسخ خطية فى برلين وغوطا ومونشن وباريس ولندره وأوكسفورد والجزائر ولينغراد . وله مختصر أيضاً . وقد شرحه الشيخ محمد نورى الجاوى

بكتابه المسمى « مراقى العبودية »

٨ ٠ – جواهر القرآن ودرره : طبع فى مكة ويمباى ومصر ومنه نسخة فى ليدن والمتحف البريطانى ولينتغراد ودار الكتب المصرية .

٩ ٠ – الحكمة فى مخلوقات الله : طبع غير مرة فى مصر .

١٠ ٠ – خلاصة التصانيف : ألفه باللغة الفارسية .وترجمه محمد أمين الكردى المتوفى سن ١٣٣٢ ، طبع فى مصر ١٣٢٧ .

١١ ٠ – الدرة الفاخرة فى كشف علوم الآخرة : طبع فى جنيف ١٨٧٣ م بعناية (غوتييه) وفى القاهرة غير مرة ؛ وفى ليبسيك ١٩٢٥ .

١٢ ٠ – الرسالة اللَّدُنِّيَّة : طبعت مع رسالة « كنه ما لابد منه للمريد منه » لابن العربى .

١٣ ٠ – الرسالة الوعظية : طبعت ضمن مجموع فى القاهرة ١٣٤٣ .

١٤ ٠ – فاتحة العلوم : وهو مشتمل على فصلين ، ومنه تسخة فى مكتبة برلين وأخرى فى مكتبة باريس ، طبع فى مصر ١٣٢٢ .

١٥ ٠ – القواعد العشرة : طبع فى مصر غير مرة .

١٦ ٠ – الكشف والتبيين في غرور الخلق أجمعين : طبع بهامش « تنبيه المغتر » للشعرانى .

١٧ ٠ – المرشد الأمين إلى موعظة المؤمنين (من إحياء علوم الدين) لخص فيه الإحياء ، طبع بمصر ١٣٤١ هـ .

١٨ ٠ – مشكاة الأنوار : فيه بحث عن الفلسفة اليونانية من حيث التصوف ، طبع فى مصر ضمن مجموع عام ١٣٤٣ ؛ ومنه نسخ خطية فى دار الكتب المصرية ، وسائر المكاتب الدولية فى أوروبا وله ترجمة عبرانية .

١٩ ٠ – مكاشفة القلوب المقرب إلى حضرة علام الغيوب : مختصر من المكاشفة الكبرى للغزالى ، إختصار بعض الأفاضل ، طبع فى مصر غير مرة .

٢٠ ٠ – منهاج العابدين إلي الجنة قيل إنه آخر تأليفه ، طبع فى مصر غير مرة . وعلى هامشه كتاب « بداية الدراية » ومنه نسخة خطية فى برلين وباريس وليدن والمتحف ابريطانى والجزائر وله تلخيص ينسب إلى « بلاطونسى » من أهل القرن التاسع الهجرى وهذا له شرح ترجم إلى التركية .

٢١ . – ميزان العمل : مختصر في علم النفس وطلب السعادة ، التي لا تنال إلا بالعلم والعمل ، وبيان شرف الفعل والعلم والتعليم . طبع في ليبسيك ١٨٣٩ وفي مصر ١٣٢٨ .

العقائد

٢٢ . – الأجوبة الغزالية في المسائل الأخروية : راجع المضنون به على أهله .

٢٣ . – الاقتصاد في الاعتقاد : طبع في مصر غير مرة .

٢٤ . – إلجام العوام عن علم الكلام : طبع في مصر غير مرة ، وفي الهند ، ومنه نسخ خطية في مكاتب أوروبا .

٢٥ . – الرسالة القدسية في قواعد العقائد : طبع في الإسكندرية (دون تاريخ)

٢٦ . – عقيدة أهل السنة : طبع في الإسكندرية (دون تاريخ) ومنه نسخ خطية في برلين وأوكسفورد ولندره .

٢٧ . – فضائح الباطنية وفضائل المستظهرية : ويسمى المستظهري ؛ نشر منه « جولد تسيهر » قسما كبيراً وقدم له مقدمة وبحث فيه بحثاً طويلا باللغة الألمانية ، طبع في ليدن ١٩١٦ مع المتن العربي .

٢٨ . – فيصل التفرقة بين الإسلام والزندقة : طبع في مصر ١٣٤٣ ضمن مجموع . ومنه نسخ خطية في برلين والقاهرة .

٢٩ . – القسطاس المستقيم : طبع في مصر غير مرة ، ومنه نسخة خطية في دار الكتب المصرية ونسخه في برلين وأخرى الاسكوريال ، وعليه شرح اسمه « ميزان القويم » .

٣٠ . – كيمياء السعادة : طبع غير مرة في مصر ، ومنه نسخة فارسية في مكتبة برلين ، وأجزاء متفرقة في سائر المكاتب ، فضلاً عن النسخة العربية .

. . المستظهري : راجع فضائح الباطنية .

. . المضنون به على أهله : يسمى الأجوبة الغزالية ، طبع في مصر غير مرة وفي الهند .

٣١ . – المقصد الأسنى في شرح أسماء الله الحسنى : طبع في مصر ١٣٢٤ هـ .

الفقه والأصول

٣٢ . – أسرار الحج : في الفقه

الشافعى ، طبع فى مصر (دون تاريخ) .

٣٣ . - المستصفى فى علم الأصول : طبع فى القاهرة غير مرة ، ومنه نسخ خطية فى دار الكتب المصرية ، وفى مكتبة غوطا .

٣٤ . - الوجيز فى الفروع : أخذه من البسيط والوسيط ، وزاد فيه أموراً ، وهو كتاب جليل فى المذهب الشافعى . (مطبعة شركة الكتب ١٣١٨ ج ٢) . ومنه نسخة خطية فى دار الكتب المصرية وله شروح عديدة لم تطبع .

الفلسفة والمنطق

٣٥ . - تهافت الفلاسفة : طبع فى مصر غير مرة ، وفى بمباى (الهند) ١٢٠٤، رد فيه على الفلاسفة الطبيعين وقد ترجم إلى العبرانية .

٣٦ . - رسالة الطير : طبع ضمن مجموع فى القاهرة ١٣٤٣ هـ .

٣٧ . - محك النظر فى المنطق : طبع فى مصر (دون تاريخ).

٣٨ . - مشكاة الأنوار : طبع فى مصر ضمن مجموع ١٣٤٣ .

٣٩ . - معارج القدس فى مدارج معرفة النفس : طبع فى القاهرة ١٣٤٦ هـ ١٩٢٧ م

٤٠ . - معيار العلم فى المنطق : طبع فى مصر طبعاً متقناً ١٣٢٩ .

والحكمة الإلهية والحكمة الطبيعية ، طبع فى ليدن ١٨٨٨ م مع شروح ، وفى القاهرة غير مرة ، وله ترجمة لاتينينة طبعت فى البندقية ١٥٠٦ م .

٤٣ . - المنقذ من الضلال : (وهو هذا الكتاب) منه نسخ خطية فى مكاتب برلين وليدن وباريس والاسكوريال ودار الكتب المصرية وتكلم عنه مطولاً « شمولدرز » فى كتابه عن فلسفة العرب المطبوع ١٨٤٢ م بالفرنسية .

٢ . المخطوطة

التصوف

٤٣ . - جامع الحقائق بتجربة العلائق : منه نسخة خطية فى مكتبة أوبسال .

٤٤ . - زهد الفاتح : منه نسخة خطية فى المتحف البريطانى .

٤٥ . - مدخل السلوك إلى منازل الملوك : بحث فى حياة الصوفى ومنه نسخة فى الاسكوريال .

٤٦ . - معارج السالكين : منه نسخة فى مكتبة باريس .

٤٧ . - نور الشمعة فى بيان ظهر

الجمعة : منه نسخة خطية فى ليدن .

الفقه والأصول

٤٨ . – البسيط فى الفروع على نهاية المطلب لامام الحرمين : منه نسخة خطيه فى مكتبة الاسكوريال وأخرى فى دار الكتب المصرية .

٤٩ . – غاية مسائل الدور : منه نسخة خطيه فى مكتب المتحف البريطانى .

٥٠ . – المنخول فى الأصول : منه نسخة خطية فى دار الكتب المصرية .

٥١ . – الوسيط المحيط بأقطار البسيط : منه نسخ خطية فى مكتبتى مونشن وأكسفورد ودار الكتب المصرية .

الفلسفة

٥٢ . – حقائق في العلوم لأهل الفهوم : منه نسخة فى مكتبة باريس .

٥٣ . – المعارف العقلية والحكمة الإلهيه : منه نسخ فى مكتبتى باريس وأو كسفورد .

٥٤ . – فضائل القرآن : منه نسخة خطية فى دار الكتب المصرية .

٣ – المفقودة

أ

٥٥ . – آداب الكتب والمعاش .

٥٦ . – الأجوبة المسكتة عن الأسئلة المبهتة .

٥٧ . – أخلاق الأبرار والنجاة من الأشرار .

٥٨ . – إرشاد العباد .

٥٩ . – أرواح الاشباح .

٦٠ . – أساس القياس .

٦١ . – الأسئلة والأجوبه .

٦٢ . – أسرار الانوار الالهية في الآيات المتلوة القرآنية .

٦٣ . – أسرار اتباع السنة .

٦٤ . – أسرار حروف الكلمات .

٦٥ . – أسرار المعاملات .

٦٦ . – الإشارة المعنوية إلى الاسرار الحرفية .

٦٧ . – إشراق المأخذ .

٦٨ . – الامتثال لمشيئة الله تعالى والعصيان لها .

٦٩ . – الانتصار على الامام الزناتى .

٧٠ . – الانتصار لما فى الأجناس من

من مرة .

٢١٥ . – منهاج المتعلم

٢١٦ . – المنهج الأعلى

٢١٧ . – المواعظ فى الاحاديث القدسية

٢١٨ . – مواهم الباطنية

ن

٢١٩ . – نصائح الملوك (فارسي)

٢٢٠ . – نصيحة الملوك

٢٢١ . – نعمة الفقير

٢٢٢ . – نهاية الاقدام فى الفقه

٢٢٣ . – النية والاخلاص

و

٢٢٤ . – الوسائل فى الفروع

٢٢٥ . – الوظائف في بيان العلوم

هـ

٢٢٦ . – هشت قائدة انز جاتم أصسم (فارسي)

ي

٢٢٧ . – ياقوت التأويل فى تفسير التنزيل (وهو تفسير القرآن فى أربعين مجلداً)

٢٢٨ . – يواقيت العلوم (فارسي)

نقلنا هذه الجريدة عن مقدمة كتاب المنقذ من الضلال للغزالى طبعة مكتب النشر العربى بدمشق وآستقى هذه الجريدة من المصادر التالية : طبقات السبكى ، طبقات الشافعى للحزامى ، عقود الجوهر فيمن له خمسون مصنفا فمئة فأكثر لجميل العظم ، معجم المطبوعات العربية والمعرية لسر كيس ، المجلد الخامس عشر من الهلال ، الاخلاق عند الغزالى لزكى مبارك .

هذا وقد عُثر على بعض هذه المؤلفات الغزالية وطبعت أكثر من مرة .

٣٠ – المنحولة

١٠ – التبر المسبوك في حكايات وحكم ونصائح الملوك : طبع في القاهرة غير مرة وقد ترجمه عن الفارسيه إلى العربية – فيما يزعم الذين دسوه على الغزالي – أحد تلامذة المؤلف ويسمى أيضا « عمدة المحققين وبرهان اليقين » .

٢٠ – تحسين الظنون

٣٠ – سر العالمين وكشف ما فى الدارين : يبحث فى نظام الحكومات : منسوب له ، والصواب أنه لأحد الباطنية . طبع فى الهند ومصر . ومنه نسخة خطية في دار الكتب المصرية .

٤٠ – السر المكتوم في أسرار النجوم

٥٠ – المضنون به على غير اهله : اشتمل هذا الكتاب علي القول بقدم العالم ونفى علم القديم بالجزيئات ، ولهذا ذهب السبكى وابن الصلاح والزبيدى وتابعهم الدكتور علي العناني وغيره من علماء العصر على إبعاد هذا الكتاب من جريدة كتب الغزالى . طبع في مصر غير مرة ، ومنه نسخ خطية في دار الكتب المصرية ومكاتب : برلين وباريس وليدن ولينفراد .

٦٠ – النفخ والتسوية

فهرست الكتاب

الموضوع

من مؤلفات الدكتور عامر النجار

- الطهارة فى الإسلام طبعة ثالثة دار المعارف بالقاهرة .
- الطرق الصوفية فى مصر طبعة رابعة دار المعارف بالقاهرة
- التصوف النفسى طبعة أولى دار المعارف بالقاهرة
- فى تاريخ الطب فى الدولة الإسلامية طبعة ثانية دار المعارف بالقاهرة
- الخوارج .. عقيدة .. وفكرا .. وفلسفة طبعة ثالثة دار المعارف بالقاهرة
- علم الكلام طبعة أولى دار المعارف بالقاهرة
- نظرات .. فى فكر الغزالى طبعة ثانية دار المعارف
- كتاب الصلاة طبعة ثالثه دار المعارف بالقاهرة
- الإباضية ومدى صلتها بالخوارج طبعة أولى دار المعارف بالقاهرة .

تحت الطبع

- الدروز .. عقيدة .. وفكراً .. وفلسفة .
- الزكاة في الإسلام

رقم الإيداع	٩٢/٩٥١٨
الترقيم الدولى	I.S.B.N 977 - 02 - 3888 - 0

٣/٩٢/٣١

جولدن ستار للطباعة